المجلس الأعلى للغة العربية

مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي

منوّر الأذهان وفارس البيان

كتاب أصدره المجلس بمناسبة اليوم الدراسي : « الإمام البشير الإبراهيمي منور الأذهان وفارس البيان » المنعقد بالجزائر في 01 - 06 - 2009

مُقتطفات

من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي

"منوّر الأذهان وفارس البيان"

كتاب أصدره المجلس بمناسبة اليوم الدراسي :

"الإمام البشير الإبراهيمي منوّر الأذهان وفارس البيان"

المنعقد بالجزائر في **2009-06-01**

- عنوان الكتاب: مقتطفات من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي
- قياس الصفحة: 24/16 سم
- عدد الصفحات: 144 ص
- **الإيداع القانوني:** 2640 /2009
- **ردمك:** 978-9947-821-39-8

المجلس الأعلى للغة العربية

06، **شارع أمحمد بوقرة الأبيار ـ الجزائر**

ص.ب 575 **الجزائر ـ ديدوش مراد**

الهاتف: 021.23.07.24 / 25 **الفاكس:** 021.23.07.07

رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

عبد العزيز بوتفليقة

مُقَـدّمة

يجدُ القارئ الكريم في هذا الكتاب باقةً من الزهور قطفناها له من كتاب "آثار الإمام البشير الإبراهيمي" الذي صدر عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1997 والذي حوَى من خلال أجزائه الخمسة أكثر ما أُثيرَ عن الإمام من مقالات ودراسات ورسائل وأشعار، وما هي إلاّ أقلُّ القليل ممّا جادت به قريحة هذا الفارس في البيان، "الفلتةُ من فلتات الزمان"([1]) علماً بأنّ القسم الأكبر من تراثه قد ضاع ـ ويا للأسف ـ بسبب عدم التسجيل، ولكون الإمام، في أغلب الأحيان يرتجل ما يُلقيه ارتجالا.

إنها 21 مقالة من مجموع حوالي 460 ضمَّها كتاب الآثار، نُشر معظمها في "البصائر"و "الشهاب"، لسانيْ حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ما بين سنتيْ 1931، سنة تأسيس الجمعية، و 1965 سنة انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى.

ولئن كان تبويب المقالات في كتاب "الآثار" قد وُضع ـ إجمالا ـ حسب أهمّ مراحل حياة الإمام، فإننا ارتأينا، نظرا للعدد القليل من المقالات التي آنتقيناها، لهذا الكتاب، أن نوزعها على محاور ثلاثة، ووفقًا لما قصدناه من التركيز على أقرب المواضيع إلى رسالة المجلس الأعلى للغة العربية، وعلى بعض القضايا الجوهرية التي أوْلاها الإمام الاهتمام الأكبر، مثل التّفاني في الدفاع عن الوطن، والدعوة للقيام بثورة ثقافية شاملة، عن طريق نشر العلم، والعمل على

[1] - كما وصفه رفيقه في الكفاح الشيخ العربي التبسي، رحمه الله.

إحياء الإسلام وتجديده، تطبيقا لتعاليمه، واستجابةً لمتطلبات عصره، ولما لهذه المواضيع من الأهمية القُصوى في تمكين حبّ الوطن في نفوس الناشئة، وتحضير قوي لهِمَمهم للاضطلاع لمسؤولياتهم تجاه وطنهم ودينهم وأمّتهم.

وهَدفُنا من وضع هذه الباقة من الزهور في أيدي نشئنا الصاعد، إنما هو تعريفهم بأحد أكبر أدباء بلادهم الذين أفْنوا أعمارهم في خدمة الجزائر لإحياء مقوّماتها وأمجادها في مجالات اللغة والعلم والدّين.

إن الإمام الإبراهيمي أحد أقطاب اللغة والبيان العربي، دون منازع، وقد اعترف له القاصي والداني بالرّيادة في الميدان حتى تبوّأ بكل جدارة واقتدار، منازل العِظام في مجامع اللغة العربية بمصر والشام! فقال عنه الأستاذ منصور فهمي مثلا بعدما استمع إلى إحدى محاضراته : "إنه لم يسمع ولم يرَ في حياته من هو أفصح أو أبلغ من الشيخ البشير الإبراهيمي، ودعا جميع العلماء والأُدباء في الوطن العربي (نعم في الوطن العربي كله !!!) إلى أن يُلقوا إليه مقاليد اللغة والبيان، ثم خاطب الشيخ قائلا : "أنت مَلكُ العربية لهذا العصر، ملكتَ ناصيتها ونواصيها"[1]

وكما كان ـ رحمه الله ـ الفارس المغوار في مبادئ اللغة العربية وآدابها، كان الداعية المِقدام إلى تحرير الوطن، وتحرير فلسطين، و إلى اتّخاذ العلوم، كل العلوم، السّبيل الأمثل للنهضة بالأمة، و إلى تجديد الصّلة الحقيقية بالإسلام، صلة واعية، صادقة، مُلتزمة.

[1] - آثار الإمام، جII، ص 8.

فهو يقول مثلا ـ في هُيامه بوطنه الجزائر : "...قُل للجزائر الحبيبة، هل يخطر ببالك من لم تغيبي قطّ عن باله؟ وهل طاف بك طائف السلو، وشغلك مانع الجمع وموجب الخلو، عن مشغولٍ بهواك، عن سواكِ؟ إنه يعتقد أن من كل جزيرة قطعة من الحُسْن، وفيك الحسْنُ جميعه، لذلك ـ كنَّ مفردات وكنتِ جمعاً ـ فإذا قالوا : الجزائر الخالدات، رجعنا فيك إلى توحيد الصفة وقلنا : الجزائر الخالدة، وليس بمستنكرٍ أن تجمع الجزائر كلّها في واحدة" [1]

ويقول عن فلسطين في سنة 1948 : " أيّها العرب، أيّها المسلمون : إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منّا ونحن عُصبة إنّا إذا لخاسرون!".

ويقول في آخر خطبة له بمسجد كتشاوة غداة الاستقلال : "يا معشر الجزائريين، إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبيّنا " إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يُطاع فيما دون ذلك، فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلاّ فيما اضطررتم إليه، وما أُبيحَ للضرورة يُقدَّر بقدرها".

ويتوجَّهُ إلى الشباب قائلا : "إنّكم يا أبناءنا مناطُ آمالنا، نُعدُّكم لحمل الأمانة، وهي ثقيلة، ولاستحقاق الإرث وهو ذو تبعات وذو تكاليف، وننتظر منكم ما ينتظر المُدْلج في الظلام، من تباشير الصبح!"[2].

[1] - انظر : تحية غائب كالآيب، صفحة 7

[2] - إلى أبنائي الطلبة : ج III، ص 201 من الآثار.

ويقول، ويقول، ممّا تجِـدُهُ، أيّهـا القـارئ الكـريم، منـشورا في ثنايـا هـذا الكتاب، وكأنه قاله بالأمس فقط؟

فعسى هذه المقتطفات، أن تكون عامل تشويق للشباب لمطالعتهـا وحـافز هممهم إلى المزيد، بالرجوع إلى " آثار الإمام" بُغية اكتشاف كنوزه، والنهل مـن ينابيعه.

وهذا ما سعى إليه المجلس من خلال تنظيم يوم دراسي حول جوانب مـن آثار الإمام موضوعه : **"محمد البشير الإبراهيمي منور الأذهان وفارس البيـان"** وذلك في يوم 01 جوان 2009 بالأوراسي ـ الجزائر يساهم فيه نخبـة مـن العلـماء والباحثين .

الأستاذ/ عبد الوهاب حمودة

الإمام محمد البشير الإبراهيمي

محطات من حياة
الإمام البشير الإبراهيمي

مولده: ولد بقرية (رأس الوادي) بناحية مدينة سطيف في 14 يونيو 1889، حفظ القرآن على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي،

هاجر والده الشيخ السعدي الإبراهيمي إلى المدينة المنورة عام 1908، هروبا من ويلات الاستعمار الفرنسي، ولحق به ابنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عام 1911، مرورا بمصر التي أقام بها ثلاثة أشهر، التقى خلالها بعلمائها وأدبائها وشعرائها، وحضر دروس العلم بالأزهر.

درس عند وصوله إلى المدينة المنورة على يد كبار علمائها الوافدين إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي، العلوم السائدة آنذاك، كعلوم التفسير، الفقه، الحديث، والتراجم، وانساب العرب وأدبهم ودواوينهم، علم المنطق، والحكمة المشرقية، وكتب اللغة والأدب، وكان يقضي وقته في إعطاء دروس للطلبة في الحرم النبوي الشريف، والتردد على المكتبات العامة والخاصة، باحثا عن المخطوطات.

التقاؤه بالشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس: التقى بالإمام عبد الحميد بن باديس في عام 1913 في موسم الحج، بالمدينة المنورة.

- 1917 انتقل الشيخ الإبراهيمي إلى دمشق، حيث دعته حكومتها إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، بالإضافة إلى إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي، حيث تخرج على يديه جيل من المثقفين، كان لهم اليد الطولي في النهضة العربية الحديثة.

- 1920 عاد محمد البشير الإبراهيمي إلى الجزائر، وفي مخيلته فكرة حركة تحي الإسلام والعربية بالجزائر، لنشر العلم وبعث الأمة، فوجد الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس قد خطا خطوات كبيرة في قيادة حركة ثقافية وصحفية بمدينة قسنطينة، وأقام بمدينة سطيف التي أنشأ فيها مدرسة ومسجدا، وبقي على اتصال بابن باديس، وخلال هذه الفترة تردد على مدينة تونس، حيث كان يقيم أصهاره ، وحيث كانت له صداقات في الأوساط العلمية والأدبية.

بدايات جمعية العلماء (1931 – 1940): في عام 1931 تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كرد فعل حقيقي على احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلال الجزائر، فجاء شعار الجمعية قويا وصارخا في وجه فرنسا، وراسما الخلاص منها: (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا)

قيادة الحركة الدينية والثقافية بالجزائر 1940 – 1952 : نفته فرنسا إلى مدينة أفلو في بداية الحرب العالمية الثانية، وبعد مضي أسبوع على نفيه تلقى خبر وفاة صديقه الإمام عبد الحميد ابن باديس (رحمه الله)، فانتخبه أعضاء الجمعية رئيسا عليهم، فتحمل هذه المسؤولية الكبيرة غيابيا عن طريق المراسلة، طيلة الثلاث سنوات التي قضاها في المنفى، وعند عودته من المنفى طفق يجوب ربوع الوطن معلما ومرشدا، يوحد الصفوف، ويؤسس المدارس والمساجد والنوادي، ويربي العقول.

- **1945** زج به الاستعمار الفرنسي في السجن بعد أحداث 8 مايو 1945 لمدة عام كامل.

- **1946** استأنف نشاطه، فأسس جريدة **(البصائر)** من جديد في السنة الموالية بعد أن توقفت أثناء الحرب كما أشرف بنفسه على تحريرها وأسس معهدا ثانوياً أطلق عليه اسم رفيقه وصديقه (معهد عبد الحميد ابن باديس) بقسنطينة

المرحلة المشرقية الثانية (1952 1962): سافر مرة ثانية إلى المشرق العربي عام 1952، ممثلا للجمعية لدى الحكومات العربية، لقبول بعثات طلابية جزائرية في معاهدها وجامعاتها، متخذا مصر منطلقا لنشاطاته العلمية والثقافية والسياسية.

في 15 نوفمبر 1954 : وجه نداء إلى الشعب الجزائري يدعوه فيه إلى الالتفاف حول الثورة الجزائرية المسلحة وخوض معركة الجهاد.

من آثاره: وقد كان "البشير الإبراهيمي" واسع المعرفة، متنوع الثقافة، متعدد الميول والاهتمامات، ألف في الأدب واللغة، كما صنف في الفقه والمعاملات، ونظم الشعر، وكتب العديد من المقالات، وترك "البشير" تراثا علميّا وأدبيّا كبيرا، ومن أهم تلك الأعمال:

- أسرار الضمائر العربية.
- الاطراد والشذوذ في العربية.

- النقابات والنفايات في لغة العرب؛ وهو أثر لغوي يجمع كل ما هو على وزن فعالة من مأثور الشيء ومرذوله .

- التسمية بالمصدر.

- حكمة مشروعية الزكاة.

- رواية "كاهنة أوراس".

- شعب الإيمان (في الفضائل والأخلاق الإسلامية).

- الصفات التي جاءت على وزن "فُعَل".

- عيون "البصائر"، (وهي مجموعة مقالاته التي نشرت في جريدة "البصائر").

- فتاوى متناثرة.

- الملمحة الرجزية في التاريخ.

وقد طبعت أخيرًا مجموعة من مؤلفات "البشير الإبراهيمي" في خمسة مجلدات تحت عنوان" آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

في 19 مايو 1965 توفي الإمام محمد البشير الإبراهيمي عن عمر يناهز 76 سنة حافلة بالجد والاجتهاد وبالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، والدين الحنيف الصحيح، ونشر اللغة العربية، ، تاركا وراءه فراغا عز سده، فرحمة الله الواسعة على روحه الطاهرة.

مقتطفات من آثاره

1- في شئون الوطن والأمة

نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد:
نعيذكم بالله أن تتراجعوا...[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المسلمون الجزائريون:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله وأحياكم، وأحيا بكم الجزائر، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن حياكم خلفها. هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطلق الذي يقوم القلوب الغلف، وهذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب والأوهام.

كان العالم يسمع ببلايا الاستعمار الفرنسي لدياركم، فيعجب كيف تؤثرون هذا الموت البطيء على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق شبابكم إلى المجازر البشرية، في الحروب الاستعمارية، فتموت عشرات الآلاف منكم في غير شرف ولا محمدة، بل في سبيل فرنسا، وتوسيع ممالكها، وحماية ديارها، ولو أن تلك العشرات من الآلاف من أبنائنا ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء وكنتم بهم سعداء.

[1] - بيان نشر ووجه من القاهرة في 15 نوفمبر 1954، وهو منشور في كتاب (الجزائر الثائرة) للمرحوم الأستاذ الفضيل الورتلاني الذي طبع بلبنان في الخمسينات. وذكر الشيخ محمد خير الدين في مذكراته أن نسخة من هذا النداء تحت يده. مذكرات، ج1، ص 384.

أيها الإخوة الجزائريون:

أذكروا غدر الاستعمار ومماطلته.

احتلت فرنسا وطنكم منذ قرن وربع قرن، وشهد لكم التاريخ بأنكم قاومتموها مقاومة الأبطال، وثرتم عليها مجتمعين ومتفرقين، نصف هذه المدة.

فما رعت في حربها لكم دينا ولا عهدا، ولا قانونا ولا إنسانية، بل ارتكبت كل أساليب الوحشية، من تقتيل النساء والأطفال والمرضى، وتحريق القبائل كاملة، بديارها وحيواناتها وأقواتها.

ثم حاربتم معها وفي صفها، وفي سبيل بقائها نصف هذه المدة، ففتحت بأبنائكم الأوطان وقهرت بهم أعداءها، ورحمت بهم وطنها الأصلي، فما رعت لكم جميلا، ولا كافأتكم بجميل، بل كانت تنتصر بكم، ثم تخذلكم، وتحيا بأبنائكم، ثم تقتلكم، كما وقع لكم معها في شهر مايو سنة 1945، وما كانت قيمة أبنائكم الذين ماتوا في سبيلها، وجلبوا لها النصر، إلا أنها نقشت أسماء بعضهم في الأنصاب التذكارية، فهل هذا هو الجزاء؟

طالبتموها بلسان الحق، والعدل، والقانون، والإنسانية، من أربعين سنة، بأن ترفق بكم، وتنفس عنكم الخناق قليلا، فما استجابت. ثم طالبتموها بأن ترد عليكم بعض حقوقكم الآدمية، فما رضيت. ثم طالبتموها بحقكم الطبيعي، يقركم عليه كل إنسان، وهو إرجاع أوقافكم ومعابدكم وجميع متعلقات دينكم، فأغلقت آذانها في إصرار وعتو. ثم ساومتموها على حقوقكم السياسية بدماء أبنائكم الغالية التي سالت في سبيل نصرها، فعميت عيونها عن هذا الحق الذي يقرره حتى دستورها، ثم هي في هذه المراحل كلها، سائرة في معاملتكم من فظيع إلى أفظع.

أيها الإخوة الجزائريون الأبطال:

لم تبق لكم فرنسا شيئا تخافون عليه، أو تدارونها لأجله، ولم تبق لكم خيطا من الأمل تتعللون به. أتخافون على أعراضكم وقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمة وقد استباحتها. لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون على الأرض وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعها، أسعدكم من يعمل فيها رقيقا زراعيا يباع معها ويشترى، وحظكم من خيرات بلادكم النظر بالعين والحسرة في النفس؟ ويا ويلكم من الدين الذي لم تجاهدوا في سبيله، ويا ويل فرنسا من الإسلام: ابتلعت أوقافه وهدمت مساجده، وأذلت رجاله، واستعبدت أهله، ومحت آثاره من الأرض، وهي تجهد في محو آثاره من النفوس.

أيها الإخوة المسلمون:

إن التراجع معناه الفناء.

إن فرنسا لم تبق لكم دينا ولا دنيا، وكل إنسان في هذا الوجود البشري إنما يعيش لدين ويحيا بدنيا، فإذا فقدهما فبطن الأرض خير له من ظهرها.

وإنها سارت بكم من دركة إلى دركة، حتى أصبحت تتحكم في عقائدكم وشعائركم وضمائركم، فالصلاة على هواها لا على هواكم، والحج بيدها لا بأيديكم، والصوم برؤيتها لا برؤيتكم، وقد قرأتم وسمعتم من رجالها المسئولين عزمها على إحداث (إسلام جزائري) ومعناه إسلام ممسوخ، مقطوع الصلة بمنبعه في الشرق وبأهله من الشرقيين.

إن الرضى بسلب الأموال قد ينافي الهمة والرجولة، أما الرضى بسلب الدين والاعتداء عليه فإنه يخالف الدين، والرضى به كفر بالله وتعطيل للقرآن.

إنكم في نظر العالم العاقل المنصف لم تثوروا، وإنما أثارتكم فرنسا بظلمها الشنيع وعتوها الطاغي، واستعبادها الفظيع لكم قرنا وربع قرن، وامتهانها لشرفكم وكرامتكم، وتعديها المريع على مقدساتكم.

إن أقل القليل مما وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسي يوجب عليكم الثورة عليه، من زمان بعيد، ولكنكم صبرتم، ورجوتم من الصخرة أن تلين، فطمعتم في المحال، وقد قمتم الآن قومة المسلم الحر الأبي فنعيذكم بالله وبالإسلام أن تتراجعوا أو تنكصوا على أعقابكم. إن التراجع معناه الفناء الأبدي والذل السرمدي.

إن شريعة فرنسا أنها تأخذ البريء بذنب المجرم، وإنها تنظر إليكم مسالمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنها عدو لكم وأنكم عدو لها. ووالله لو سألتموها ألف سنة، لما تغيرت نظريتها العدائية لكم، وهي بذلك مصممة على محوكم، ومحو دينكم وعروبتكم، وجميع مقوماتكم.

إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت.

إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي ارث العروبة والإسلام فيكم.

ما كان للمسلم أن يخاف الموت، وهو يعلم أنها كتاب مؤجل، وما كان للمسلم أن يبخل بماله أو بمهجته، في سبيل الله، والانتصار لدينه، وهو يعلم أنها قربة إلى الله وما كان له أن يرضى الدنية في دينه، إذا رضيها في دنياه.

أخلصوا العمل وأخلصوا بصائركم في الله واذكروا دائما، وفي جميع أعمالكم، ما دعاكم إليه القرآن من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدين، واذكروا قبل ذلك كله قول الله (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) وقول الله: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

أيها الإخوة الأحرار:

هلموا إلى الكفاح المسلح.

إننا كلما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، وذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين، لا لشيء إلاّ لأنهم مسلمون، كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين، وخجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبعونه وتوفيقه، إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين: إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عن مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة:

محمد البشير الإبراهيمي،

الفضيل الورتلانـــي

القاهرة في 15 نوفمبر 1954.

تحية غائب كالآيب...[1]

حيّي الجزائر عني يا صبا ... واحمل إليها مني سلاما تباري لطافته لطافتك، وتساري إطافته إطافتك ، فقديما حملك الكرام الأوفياء مثل هذه التحية إلى من يكرم عليهم ،أو ما يكرم عليهم، فحملتها روحا، وأَدَيتها بوحا، وأعلنتها شذى وفوحا، وكنت بريد الأرواح إلى الأرواح، بألفاظ غير مكتوبة، ومعان غير مكذوبة، وقديما أفضى إليك الشعراء بشجونهم، وائتمنوك على جدهم ومجونهم، فاحتملت غثَا وسمينا،وكنت على الأسرار أمينا، فكأنَك كنت لهم محطة إرسال واستقبال معا، يحمَلونك الرسائل تخيَلا، و يتلقَون أجوبتها إحساسا، وما عرف واش ولا شعر رقيب، وما كنت لديهم الثقة الأثير،

إلا لأنك "ابن الأثير". وكأنَ محطات الحقيقة اليوم وضعت بإشارتك وتأثَرت بأثارتك، وكأن شأنك وشأنهم في ذلك إرهاص بحقيقة حوَموا عليها ولم يردوا، وجمجموا عنها ولم يفصحوا، وادَخر الله تحقيقها لهذا الزمان، ولا عجب فكل حقيقة مبدأها خيال.

لي إليك وسيلة مرعية المتات بما أسلف أوائلي فيك من مدح، وبما أذاعوا لك من فضل، وبما رفعوا لك من ذكر، فالذي تؤدَيه عني اليوم هو "ثمن الإعلان" ورثته عن سلف، ولم يسقط حقَي فيه تقادم الزمان.

[1]- نشرت في العدد 229 من جريدة البصائر، 15 ماي 1953.

أنت يا صبا ريح، وكأنَ فيك قطعة من كل روح، يجد فيك كل غريب أنسا، وكل حبيب سلوى، وكل مكروب تنفيسا؛ خلال كلَها جلال، وما ذلك الروح الذي يجده الواله في أنفاسك، إلا أنفاس المحبَين تمتزج بأنفاسك، فيجدونها بردا على الأكباد، وبشاشة في الأسارير ورضى في السرائر. فلعمرك... لئن كان في الرياح لواقح للأشجار، ففيك وحدك لقاح النفوس، ولئن كان فيها ما يحرق الورق، ففيك وحدك ما يطفئ الحرق.

حسبك شرفا - يا صبا - أن التقى الناس فيك على وصف، وإن اختلفت بهم المنازع: جهل الجاهلون آثارك فقالوا: ما أسراك ! وكل ريح سارية، وعرف العارفون فضلك وكرمك فقالوا: ما أسراك !! وما كل شجرة وارية، وبين السَرى والسرو هي مسافة ما بين الحسَ الكثيف والحس الشفَاف.

سر - يا صبا - طاب مسراك، وصفا مجراك، في جو ضاحك الصفحة، وفضاء سافر الغرَة، لا جبلا نعمان يعترضان مهبَك، ولا عواصف الدبور تعارض مدبَك، فإذا لاحت لك بواذخ الأطلس فاسلك منها ما سلك بنو هلال، فرقة عن اليمين وفرقة عن الشمال، وخذ من آثارهم بما يجدي، فكلاكما نجدي، وستقع في شمالك على الخؤولة، وفي يمينك على العمومة، فابثُث أسرارك، وانشث أخبارك، فهنالك محطة الهوى و الشوق.

أدّ التحية عني للجزائر التي غذت وربَت، وأنبتت القوادم في الجناح، وأسلفت الأيادي البيضاء، وأسدت العوارف الغر، وأشربت من الطفولة حب العروبة والإسلام، وأخذت باليد إلى رياضهما ففتقت اللسان على أشرف لغة وسعت وحي الله ووحي العقول، وفتحت القلب لأكمل دين جمع الروح والمادة ، ثم أورثت - فيما أورثت من مآثر العرب وفضائل الإسلام - أنفا حميَا،

وفؤادا ذكيًا، ولسانا جريئا، وهمة بعيدة، و إباء للمشارب الكدرة، وقناة لا تلين إلا للحق، وذيادا عن حرمات الحمى والدين، ونفسا لو تراءت لها زخارف الدنيا من وراء الدنايا ما خاضتها إليها، وروحانية أحد طرفيها في الأرض، والآخر في السماء تأمر في ذلك كله وتنهى.

ثم عمَم التحية إلى كل من تديَر الجزائر من إخوان الصدق، وأحلاف الحق: من علماء جلاهم الإسلام سيوفا، وبراهم سهاما، وقوَمهم رمحا، ثم وحَدتهم العقيدة على غاية، وجمعهم الحق على بساط، وألف بينهم الجهاد في ميدان، فاجتمعت قلوبهم على هداية بها وألسنتهم على دعاية إليها، وأيديهم على بناء لها. ومن أنصار كانوا للدعوة السلفية الإصلاحية خزرجها وأوسها، وكانوا للنهضة الجزائرية عمادها وأسَها، وكانوا الأحجار الأولى لبناء الجزائر الجديد، والكتائب المبكَرة لإحياء مجد العرب بعز الإسلام.

ومن شبَان ربيناهم للجزائر أشبالا، ووتَرناهم لعدوَها قسيًا و نبالا، وصوَرنا منهم نماذج للجيل الزاحف، بالمصاحف، وعلَمناهم كيف يحيون الجزائر، وكيف يحيون فيها.

* * *

قل للجزائر الحبيبة هل يخطر ببالك من لم تغيبي قط عن باله؟ وهل طاف بك طائف السلو، وشغلك مانع الجمع وموجب الخلو، عن مشغول بهواك، عن سواك؟ إنه يعتقد أن في كل جزيرة قطعة من الحسن، وفيك الحسن جميعه، لذلك كنَ مفردات وكنت جمعا، فإذا قالوا :((الجزائر الخالدات)) رجعنا فيك إلى توحيد الصفة وقلنا ((الجزائر الخالدة))، وليس بمستنكر أن تجمع الجزائر كلها في واحدة.

لن أنسى – يا أمَ – أنك كنت لي ما خطة الغرس[1]، وما شطة العرس، فلا تنسي أني كنت لك من عهد التمائم إلى عهد العمائم، ما شغلت عنك إلا بك، ولا خرجت منك إلا عائدا إليك، لا تنسي أنني مازلت ألقى الأذى فيك لذيذا، والعذاب في سبيلك عذبا، والنصب في خدمتك راحة، والعقوق من بعض بنيك برَا، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة، ولا تنسي أنني عشت غيظا لعداك وشجى في حلوقهم، وكدرا لصفوهم، وأنني ما زلت أقارع الغاصبين لحقَك في ميدان. وأكافح العابثين بحرماتك في ميدان، وأعلَم الغافلين من أبنائك في ميدان، ثلاثة ميادين، استكفيتني فيها فكفيت، ورميت بي في جوانبها فأبليت، ولا منَة لي يا أمَ عليك، وإنما هي حقوق أوجبتها شرائع البر، قام بها الكرام، وخاس بعهدها اللئام.

خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار عليَ أن لا أملك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرا؟

* * *

لله في تقدير السنين أسرار، فبها تحسب الأعمار، وفيها تؤتي الأشجار الثمار، وفيها يتجدد الحنين والأدَكار، وفيها يهيج الشوق بين المتجانسات فينشأ بين الفعل والانفعال وجود، ولقد غبت عن الجزائر سنة و بعض السنة، فكنت أغالب الشوق فأغلبه، فلما قيل: هذا يوم 7 مارس – وهو موفَي سنة الفراق – هجم عليَ من الشوق ما لا يغلب، فتمثَلت بقول الوزير ابن الخطيب السلماني:

[1] - الغرس بكسر الغين: شيء من الجنين تمخطه القابلة، و العرس بالكسر: الزوجة، يريد أنه ولد فيها وتزوَج، و الولادة و الزواج هما بابا الحياة.

وجاشت جنود البين و الصبر والأسى * * عليَ فكان الصبر أضعفها جندا

غبت عن الجزائر بجسمي سنة وبعض السنة، ولكنني ما غبت عنها بروحي وفكري دقيقة ولا بعض الدقيقة، وما عملت لغيرها عملا ولا جزءا من عمل، فلساني رطب بذكرها، وشخصي عنوان عليها ورمز إليها، وأحاديثي تعريف بها وإعلاء لقيمتها، ومحاضراتي في المحافل الحاشدة في الشرقين هي فضائلها شائعة، ومفاخرها ذائعة، ومباخرها ضائعة، وأعمالي تمجيد لها ورفع لشأنها، وتنويه بنهضتها وتشريف "لجمعية علمائها"، وما الجزائر إلا جمعية العلماء، لولاها لكانت الجزائر مثل جزائر واق الواق اسما يجري على اللسان، ومسمَى معدوما في الوجود، لا ينكر هذا إلا صبَي أو غبَي، أو عقل وراءه خبي.

أشهد لقد كنت ألقى في أسفاري أنواعا من التعب فلا يهوَنها عليَ ولا يغريني بالإقدام على غيرها إلا يقيني أنها مزيد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء، وكنت ألقى من إخواني في العروبة والإسلام إقبالا عليَ واحتفاء بي على نسق من فضلهم وتكرَمهم، فلا يزدهيني من ذلك إلا أنه احتفاء بالجزائر وبجمعية العلماء، وسعدت بلقاء كثير من عظماء الشرق و علمائه وأمرائه وقادة الرأي فيه، فما عددت ذلك إلا من سعادة الجزائر وبجمعية العلماء؛ ووالله ما أنسانيهما تبدَل المناظر، وتنوَع الأشخاص، ولا لفتني عنهما تعاقب المحاسن على بصري، وتوارد معانيها على بصيرتي، بل كانتا دائما شغل خواطري ، ونجوى سرائري، وطالما طرقتني منها أطياف، كأنها أسياف، فأرتاع وألتاع، وأكاد أطير شوقا، ثم يمسح ذلك كلَه عن نفسي أن في سبيلهما سكوني و اضطرابي، ولو خرجت تاجرا لكنت في الأخسرين

صفقة، ولو خرجت متروَحا لكنت كمن هجر الجام ومديره، والروض وغديره، إلى جفاة السَفر[1]، وجفاة القفر. اليد إلى رياضهما،

أيها الوطن الحبيب :

رضيت من قسمة الله أن لم يجعلني أبا لأبناء الصلب وأفلاذ القلب وحدهم، ولوخلقت لهم لحبوت وأبوت[2]، وعثرت في مصلحتهم وكبوت، ولصنعت لهم ما تصنع الطير لأفراخها... بل جعلني أبا لأبنائك كلهم، يلوذون من علمي بكنف رعاية، ويعوذون من حلمي بسور حماية، فأسوق ضالَهم ليهتدي، وأحثَ مهتديهم ليزداد هداية.

ورضيت فوق الرضى بأبوَتك لي أن رضيت ببنوَتي لك، ويمينا لو تبرَجت لي المواطن في حللها، وتطامنت لي الجبال بقللها، لتفتنني عنك لما رأيت لك عديلا، ولا اتخذت بك بديلا، وإذا كانت أوطان الإسلام كلها وطن المسلم بحكم الدين، فإن اختصاصك بالهوى والحب من حكم الفطرة السليمة، ولنا في رسول الله أسوة حسنة في حبَه لمكَة وحنينه إليها.

ورضيت أكمل الرضى أن كان جهد المقل مني يرضيك، وما هو إلا لبنة في بنائك، وقطرة في إنائك، ورعي لذمَتك، وسعي في كشف غمَتك، ورضيت من الجزاء على ذلك كله برضى الله وقبوله، فلا يهولنَك فراغك مني أياما، فعسى أن يكون المسك ختاما، وعسى أن تسعد بآثار غيبتي أعواما.

* * *

[1] - السفر : المسافرون .
[2] - أبوت أولادي : صنعت لهم ما يصنع الآباء لأبنائهم .

أيها الوطن الحبيب:

إخوتك في الوطن العربي الأكبر رفاق سفر، ولكنهم ساروا بالأمس وخلفوك، وذكر بعضهم بعضا ونسوك، فلتهنأ اليوم أن واحدا من أبنائك ألحقك بالسائرين، ثم جلَى بك فأصبحت في المقدَمة، وذكَر بك الناسين، فلهجت باسمك الألسنة، و إنهم شركة مساهمة لم يكن لك فيها سهم، فلتقرَ عينا بابنك الذي أصبحت به في الشركة ذا سهم رابح، كما كنت به في موقف النضال ذا سهم مصيب وأنت تدري من هو ذلك الابن.

أيها الوطن الحبيب:

أما الشوق إليك فحدَث عنه ولا حرج، وأما فراقك فشدَة يعقبها الفرج، وأما الحديث عليك فأزهار تضوَع منها الأرج، وأما ما رفعت من ذكرك فسل من دب ودرج، وأما الانصراف عنك فإرجاف بالغيَ لم يجاوز صاحبه اللوى والمنعرج، وأما الأوبة فما زلت أسمع الواجب يهتف بي: أن يا بشير، إذا قضيت المناسك، فعجَل الأوبة إلى ناسك...

وسلام عليك يوم لقيت من" عقبة " وصحبه برَا، فكنت شامخا مشمخرَا، ويوم لقيت من "بيجو" وحزبة شرَا، فسلَمت مضطرَا، وأمسيت عابسا مكفهرَا، وللانتقام مسرَا، وسلام عليك يوم تصبح حرَا، متهللا مفترَا، معتزَا بالله لا مغترَا.

ومعذرة إليك إذا كنت ارتخيت، ثم انتخيت، فإنما هي نخوة الأباة الأشاوس، يدفعون بها وساوس الصدور، و يدفعون بها في صدور الوساوس.

الشاب الجزائري كما تمثّله لي الخواطر[1]

أتمثله متسامياّ إلى معالي الحياة، عربيدَ الشباب في طلبها، طاغياً عن القيود العائقة دونها، جامحاً عن الأعنَّة الكابحة في ميدانها، متّقد العزمات، تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، ونشاط الجوارح.

أتمثَّله مقداماً على العظائم في غير تهوّر، محجاماً عن الصغائر في غير جبن، مقدّراً موقع الرجل قبل الخطو، جاعلاً أول الفكر آخر العمل.

أتمثّله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخاً له، أخوةً الدم، وكلَّ مسلم أخاً له، أخوة الدين، وكل بشر أخاً له، أخوة الإنسانية، ثم يُعطي لكل أخوّة حقّها فضلا أو عدلاً.

أتمثّله حلف عمل لا حليف بطالة، وحلس معمل لا حلس مقهى، وبطل أعمال لا ماضغ أقوال، ومرتاد حقيقة لا رائد خيال.

أتمثّله برّأ بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالاً، مزواراً عن الحضارة التي (رمته بقشورها)، فأرخت أعصابه، أثنت شمائله، وخنّثت طباعه، وقيّدته

[1]- نشرت في العدد 5 من جريدة البصائر، 5 سبتمبر 1947.

بخيوط الوهم، ومجّت في نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يُذهب القفص من الأسد من بأس وصولة.

أتمثّله مقبلاً على العلم والمعرفة ليعمل الخير والنفع، إقبال النحل على الأزهار والثمار لتصنع الشهد والشمع، مقبلاً على الارتزاق إقبال النمل تجدُ لتجِدَ، وتدّخر لتفتخر، ولا تبالي مادامت دائبة أن ترجع مرة منجحة ومرة خائبة.

أحبّ منه ما يُحبُّ القائل:

أحِبُّ الفتى ينفي الفواحش سمعه ❋ كأنّ به عن كلِّ فاحشة وقرا

وأهوى منه ما يهوي المتنبي:

وأهوى من الفتيان كل سميذع ❋ أريب كصدر السمهريّ المقوم

حَطَت تحته العيسُ الفلاةَ وخالطت ❋ به الخيل كبّات الخميس العرمرم

يا شباب الجزائر، هكذا كونوا ! ... أو لا تكونوا !...

الشاب الجزائري كما تمثّله لي الخواطر[1]

أتمثله كالغصن المَرُوح، مطلولاً بأنداء العروبة، مخضوضر اللّحا والورق مما امتصّ منها، أخضر الجلدة والآثار مما رشح له من أنسابها وأحسابها، كأنّما أنبتته رمال الجزيرة، ولوّحته شمسها، وسقاه سلسالها العذب، و غذّاه نبتها الزكي، فيه مشابه من عدنان تقول إنه سرّ هاشم أو سُرّة مخزوم، زمخالُ من قحطان تقول كأنه ذو سكَن، في السَّكن[2] ، أو ذو رضاعة في قضاعة[3] متقلّباً في المنجبين والمنجبات، كأنّما ولدته خِندِف[4]، أو نهضت عنه أمّ الكملة[5]، أو حضنته أختُ بني سهم[6]، أو حنَّكته تُماضر[1]- الخنساء- لعوباً بأطراف الكلام المشقّق، كأنما وُلد في مكّة، واسترضع في إياد، وربا في مسلنطح البِطاح.

---

[1] نشرت في العدد 10 من جريدة " البصائر"، 12 أكتوبرسنة 1947.

[2] - السكن: قبيلة قحطانية.

[3] - قبيلة يتنازعها قحطان وعدنان، ويقول شاعرهم:

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر — قضاعة بن مـــالك بن حمير

في النسب المعروف غير المنكر — في الحجر المنقوش تحت المنبر.

[4] - خندق هي ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، زوجة إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان، وأم أولاده، مدركة و إخوته.

[5] - أم الكملة هي فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، إحدى منجات العرب، والكملة أبناؤها الأربعة، وقد سئلت أي بنيك أفضل؟ فقالت: الربيع بل عمار بل قيس بل أنس.ثم قالت:ثكلتهم إن كنت أدري أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها، وأبو الكملة هو زياد بن سفيان بن عبد الله بن ناشب العنسي.

[6] - تلميح إلى قول ابن الزبعري: ألا الله قوم ولدت أخت بني سهم، وهي ريطة بنت سعيد بن سهم، وقد انجبت ثمانية رجال أكبرهم هاشم بن المغيرة جد عمر بن الخطاب لأمه، وكانوا كلهم مزيداً في مفاخر مخزوم.

أتمثّله مجتمع الأشدّ على طراوة العود، بعيد المستمرّ على ميعة الشباب، يحمل ما حمّل من خير لأن يد الإسلام طبعته على الخير، ولا يحمل ما حمّل من شر لأنّ طبيعة الإسلام تأبى عليه الشر، فتح عينيْه على نور الدين، فإذا الدنيا كلها في عينيه نيّرة مشرقة، وفتح عقله على حقائق الدين، فإذا الدين والكون دالٌّ ومدلول عليه، وإذا هو يفتح بدلالة ذاك مغالق هذا، وفتح فكرَه على عظمة الكون فاهتدى بها إلى عظمة المكوّن، لأنه خاضع لجلال الله، ومن هذه النقطة يبدأ سمّو النفوس السامية وتعاليها، وتهيُّؤها للسعادة في الكون، والسيادة على الكون.

أتمثّله مجتلًى للخِلال العربية التي هي بواكير ثمار الفطرة في سلاستها وسلامتها، كأنما هو منحدر لانصبابها، وقرارة لانسكابها، وكأنما خيط على وفاء السموأل وحاجب[2]، وأشرج على إيثار كعب وحاتم [3]، وخُتم على حفاظ جسّاس والحارث[4]، وأغلِق على عزة عوف وعروة[5].

---

[1] - تماضر بنت عمروبن الشريد أخت صخر، الخنساء الشاعرة المشهورة، وتحريضها لأولادها على الجهاد وحمدها الله حيث ماتوا كلهم في موقعة واحدة، كل ذلك مفصّل في كتب السير والأدب.

[2] - السموأل بن عادياء المثل المضروب في الوفاء، وحاجب بن زرارة التميمي مثله وهو الذي رهن قوسه عند كسري.

[3] - كعب بن مامة الإيادي، وحاتم الطائي جوادان مشهوران يُضرب بهما المثل في الكرَم.

[4] - جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان قاتل كليب والحارث بن عباد، لهما ذكر تدور عليه حرب داحس والغبراء، وأخبار مفصّلة في كتب الأدب.

[5] - عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان، يعدّ في أولياء العرب وأعزّتهم، ولعزّته قابل الملك عمرو بن هند: لاحر بوادي عوف، وعروة بن المنبه بن جعفر بن كلاب الرحّال أو الوفّاد، كان يجير اللطائم للمناذرة ويجير على الحيين بكر وتغلب حتى قتل، وكان قتله سبباً في يوم الفجار بين كنانة و قيس.

أتمثله مترقرق البشر إذا حدّث، متهلّل الأسِرَّة إذا حُدّث، مقصورَ اللسان عن اللغو، قصير الخُطى عن المحارم، حتى إذا امتدّت الأيدي إلى وطنه بالتخوّن، واستطالت الألسنة على دينه بالزراية والتنقص، وتهافتت الأفهام على تاريخه بالقلب والتزوير، وتسابق الغرباء إلى كرائمه باللّصّ والتدمير، ثار وفار، وجاء بالبرق والرعد، والعاصفة والصاعقة، وملأ الدنيا فعالاً، وكان منه ما يكون من الليث إذا دِيس عَرينه، أو وُسم بالهو نعِرْنِينُه.

أتمثله شديدَ الغيرة، حديد الطيرة، يغار لبنت جنسه أن تبور وهو يملك القدرة على إحصانها، ويغار لماء شبابها أن يغور وهو يستطيع جعله فيّضاً بالقوة دافقاً بالحياة، ويغار على هواه وعواطفه أن تستأثر بها السِّلع الجليبة والسحن السليبة، ويغار لعينه أن تسترقها الوجوه المطرّاة والأجسام المعرّاة.

يا شباب الجزائر، هكذا كونوا! ....أو لا تكونوا.

في مجمع اللغة العربية بدمشق[1]

أيها الإخوان الأصفياء:

لي من الصلات الطبيعية بهذا المجمع العتيد أنَني واحد من هذه العصابة الحاملة لتراث الإسلام العلمي، ولتراث العرب الأدبي، ولخصائص الشرق الروحية، وأنَني أحد الغالين المتشدَدين في المحافظة على علوم الإسلام وآداب العرب وخصائص الشرق، المؤمنين بأنَها كانت في فترة من التاريخ منبع إسعاد و إعزاز وقوَة، فإذا كانت قد نضبت في فترة أخرى فبما كسبت أيدي أهلها من تفريط و إضاعة، وهي بعد ذلك أهل أن تدر حلائبها، و تثر سحائبها، حين يعود الإحساس و يجود الإبساس.

و إنني واحد من هذا الصنف الجديد الذي لا يرى العلم علما حتَى يكون مفيدا، ولا يرى الرأي رأيا حتَى يكون سديدا، ولا يرى الكتاب وسيلة للعلم حتَى يظهر عليه أثر العقل المستقلَ، ويلوح عليه ميسم الفكر الولود، وينفض عليه صبغ القريحة الحيَة.

و إنني واحد ممن لا يرى الخلف برَا بسلفه حتى يكون برَا بزمنه وحتَى يزيد في بناء السلف سافا، وفي تاريخهم صحيفة، وفي عددهم رقما، وفي متحفهم

[1] - فقرات من الكلمة التي ألقيت في مجمع اللغة العربية بدمشق إرتجالا، يونيو 1953.

تحفة، وحتَى يغمر نقصهم بتمامه، ويقوَم فوضاهم بنظامه، ويجمَل بدأهم بختامه.

وأنا – بعد ذلك كلَه – واحد من هذه العصبة التي تتخذ من القلم أداة جهاد، حين فاتها أن تَتخذ السيف من أدوات الجهاد، وفاتها أن تصطنع الحديد ذا البأس الشديد، فاصطنعت اليراع للقراع، واكتفت من أعمال الإيمان بأضعف الإيمان، عقوقا لسيَدنا إبراهيم الذي راغ على أصنام الكلدانيين ضربا باليمين، في هذا الزمن الذي أصبحت لغة بنيه مشتقَة من قعقعة الكتائب لا من جعجعة الكتب ولا من عجعجة الألسنة.

ولي – أيها الإخوان الكرام - من الصلات المكتسبة بهذا المجمع أن أكثر الأعضاء الذين هم عمده ودعائمه من أصدقائي الذين أعتزَ بصداقتهم، وأعتدَ بعلمهم وإدراكهم لحقائقه، فأستاذنا المرحوم محمد كرد علي، وأستاذنا الشيخ الإمام عبد القادر المغربي، والأستاذ الشاعر خليل مردم بك، وصديقنا العالم الشيخ محمد بهجت البيطار، والأستاذ الدكتور جميل صليبا، وغيرهم، كلهم من الجواهر التي عرفت قيمها، و كلَهم من الدوائح التي استمطرت ديمها، بل كلهم من السلائل التي عرفت خيمها قبل أن أعرف خيمها. ولم لا، وأنا مجنون هذه الأمَة العربية، المفتون بماضيها وحاضرها، فإذا كنت أفخر بأنَني أعرف من قبائلها الغابرة حتَى السكوف والسكاسك، وأعرف من منازلها الدائرة حتَى اللَوى والدكادك، فكيف لا تزدهيني معرفة رجالها الحاضرين الحاملين لراياتها ورواياتها، وكيف لا أفخر بصداقة أعلامها في الوقت الحاضر، وما منهم إلاَ من نظم فيها ونثر، وما كبا في ميادينها ولا عثر، وأحيا من معالمها ما اندثر، وأنبط العين بعد أن خص الأثر.

لو سألتموني – أيها الإخوان – ماذا أحببت من الأمَة العربية ولماذا أحببتها هذا الحبَ الذي بلغ درجة الافتتان، وأوَلها جاهلي وآخرها جاهلي، لأجبت جوابا يأكل الأجوبة كلَها ويسكت الشقاشق الهادرة، وهو أنَني أحببت منها ما أحبَ الله، وإذا كانت في أوَلها ضالَة فقد هداها القرآن يوم عرفته، وإذا رجعت إلى ضلالها القديم فسيرجع القرآن بها يوم تعرفه إلى الهداية، رغم أنف أوروبا و تلامذتها المغرورين بها، ورغم أسواقها العامرة بكل شيء إلاَ الهدى، وأبواقها الفارغة من كل شيء إلاَ الصدى.

أيها الإخوان: إنَ العلم بين أهله رحم يجب أن تبل ببلالها، وغير كثير على ذويها أن يتعارفوا وأن يتلاقوا على صلة تلك الرحم، وأن يتعاونوا على البر بها، وأن يتعاهدوها بالإشاعة بعد الإضاعة، وأن يتنازعوا أمر العلم بينهم، فينفوا عنه تحريف الجاهلية وانتحال المبطلين.

كلمة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: حياكم الله وبياكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تصونون عرضها، وتستردون قرضها، وللغة العرب تجمعون شتاتها، وتحيون مواتها، وترعون – على تجهم الأحداث، وسفه الوراث – متاتها، ولهذا المجمع تعلون بنيانه وترفعون على العمل النافع أركانه.

أيها الإخوة: إن هذه اللغة العربية الشريفة التي طرقنا خيالها المؤوب، ثم أسمعنا داعيها المثوب، فاجتمعنا على بساطها اليوم من جميع أقطار العروبة، هي الرحم الواصلة بيننا وهي اللحمة الجامعة لخصائصنا وآدابنا، فمن بعض حقها علينا أن نبلها ببلالها، وأن نرعى حقها في كل منسوب إليها، كما أن من بعض حقها علينا أن نخف لنجدتها، كلما مسها ضر أو حزبها أمر، وإن ما قمتم به اليوم من هذا الاستقبال المتهلل، واللقاء المرحب المؤهل، بإخوانكم أعضاء المجمع الجدد، هو فن جميل من البر بالعربية في أبنائها، يرضى الله الذي اصطفاها ترجمانا لوحيه، ويرضي محمدا صلى الله عليه وسلم الذي أدى بها أمانة الله، وبلغ بها رسالته إلى خلقه، ويرضي يعرب ونزارا اللذين سكبا بها التغاريد

[1]- كلمة الإمام في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، في حفل تنصيب أحد عشر عضوا من مختلف أقطار العروبة بتاريخ 12 مارس 1962، وهي منشورة في المجلد الرابع من البحوث والمحاضرات (مؤتمر 1961 – 1962) الصادر عن المجمع، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، جانفي 1963.

العذبة الجميلة في آذان الأجيال، وتركاها كلمة باقية في الأعقاب، ويرضي أسلافكم الذين ساسوا بها العقول، وصقلوا بها الأذهان والقرائح وراضوا على بيانها الألسنة، ودونوا بها العلم والحكمة، وخطوا بها التاريخ، وشادوا بها الحضارة الشماء التي لا تطاول، ووسعوا بها آفاق الخيال العربي، ورققوا ببيانها العواطف الكثيفة، وحدوا بها ركب الإنسانية حينا فأطربوا.

أيها الإخوة: لقد كانت العربية قبل اليوم وإن رباعها لمجفوة، وإن قصاعها لمكفوة وإن رقاعها لغير ملتامة ولا مرفوة. لقد كانت تلقى الأذى من الغريب المتنمر، ومن القريب المتنكر، فيخف لنصرتها أفذاذ من أبنائها الأوفياء، وجنودها المجهولين، ولكن لا يسمع لهم صوت لتفرقهم في أقطار العروبة المتباعدة، حتى ظهر هذا المجمع، فسعى في إعادة شبابها وتجديد معالمها، وجمع أنصارها، على تعثر خطواته في السنوات الأولى لإنشائه، كشأن كل ناشئ، ثم ما زال يقوى ويشتد، وكلما انضمت إليه طائفة من رجال العربية وفرسان بيانها انتعش وشاعت فيه الحياة، وخزته الخضرة من جوانبه، ثم ما زال المدد يتلاحق، والعدد يتكامل، حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها اليوم، وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا، وإن هذا المجمع إذا اطرد سيره، وتم إتمامه ليكوننّ أداة فعالة في وحدة العرب، ولا عجب فأقوى جامع لكلمة العرب كلام العرب، ولئن تم ذلك لتكونن هذه الأسرة أعز رهط في العرب.

أيها الأخوة: لقد كنا معشر المشغوفين باللغة العربية، الهائمين بحبها في كل واد، نتتبع أعمال هذا المجمع باهتمام، ونتلقف كل ما يقوله أو يقال عنه، فنبحثه في مجتمعاتنا الخاصة بإنصاف، ونستعرضه فصلا فصلا، وكلمة كلمة، وكنا نعرف منه وننكر، نعرف تلك الآراء القيمة التي يعلنها بعض أعضائه، وتلك المباحث الجليلة التي يقدمها بعضهم، ونستحسن تلك الأفكار الجريئة في توسيع دائرة

النحت والقياس والاشتقاق، التي كان المجمع يتناولها بالتمحيص إلى كثير من حسناته ومزاياه، وننكر منه هنات لا تحط من قيمته في أنفسنا، ولا تقدح في ما نضمر له من إجلال وإكبار. ننكر عليه البطء والتثاقل في السير، وعدم التعجيل بتقديم ثمراته إلى الأمة في مجلته ونشراته، وتقصيره في ما يجب الإسراع فيه، وأشد ما كنا ننكر من أعماله استعانته بالمستشرقين في شأن هو من خصائص الأمة العربية، ولكننا كنا لا نستطيع الجهر بما ننكره على المجمع، ولا نشيع قالة السوء عنه، لأننا نعلم أنه ناشئ، وأن النشأة مظنة للنقص، وننتظر به مرور الزمان، واستحكام التجارب ومواتاة الفرص حتى يصلح من شأنه بنفسه، والزمان يقيم الأمت، ويقوم السمت، إلاّ شيئا واحدا ما كنا نقبل فيه عذرا ولا نتسامح فيه فتيلا، وهو مسألة الاستعانة بالمستشرقين، ولقد كنا نستسيغ الاستعانة بالأجنبي في بناء سد، أو مد سكة، أو تخطيط مدينة، مما سبقنا إليه الأجانب وبرعوا فيه، أما الاستعانة بهم في شأن يخصنا كاللغة فلا !! .... ومتى رأينا مستشرقا بلغ في العربية فهم أسرارها ودقائقها ومجازاتها وكناياتها ومضارب أمثالها ما يبلغه العربي في ذلك كله؟... على أن بعض أولئك المستشرقين الذين كانوا أعضاء بهذا المجمع، كانوا مستشارين في وزارات الخارجية في بلدانهم، وهذا قادح آخر يضاف إلى قادح قصورهم في اللغة العربية.

أيها الإخوة: إن مواطن العروبة تفرقة متباعدة، وإن الرابط الطبيعي بينها هو هذه اللغة، وقد ألم بها من أحداث الدهر ما أضعف تلك الرابطة حتى رثت حبالها، وغالبتها العامية في كثير من أحكامها وكثير من مفرداتها. ولكنها لم تبتل بداء مثل هذا الداء العقام الذي نسميه الاستعمار، ولو أنصفنا لسميناه الطاعون، فهو الذي ألح عليها عن قصد تعمد حتى كاد يزهق روحها، لإيقانه بمبلغ تأثيرها في تثبيت الروابط بيننا. ومن بلاء العربية أن هذا الداء تسلط على جميع أقطار العروبة فتمكن من حرب العربية في جميعها بوسائل شيطانية لولا عناية الله وما

أودعه فيها من القوة والمناعة لقضى عليها، ولقد حاربنا على أرضنا وأقواتنا وكل وسائل الحياة عندنا فأفلح، ولكنه حينما حارب لغتنا وتدسس إلى مدب السرائر ومكامن العقائد من نفوسنا باء بالهزيمة، فلا خوف بعد اليوم وقد تنبه رب البيت فخاب اللص، وباء بالفشل والخيبة، وأبرز الأمثلة لحرب الاستعمار للعربية منعه لتعلمها في الجزائر، وحكمه بأنها لغة أجنبية في بلدها، ومنعه للكتب العربية التي تطبعت في الشرق العربي من الدخول إلى الجزائر، ما ذلك كله إلا لغاية واحدة هي إضعافها ثم الجهاز عليها، وما جرى في الجزائر جرى في غيرها من أقطار العروبة على اختلاف في الشكل، والاستعمار كله ملة واحدة، وأنا ما زلت أتلمح العامل الإلهي لحفظ هذه اللغة، وحفظ الإسلام الذي يحميها وتحميه - أتلمح هذا العامل – في هذه المذاييع التي ينفق عليها الاستعمار أموالا طائلة لتذيع القرآن بلغته في العواصم الكبرى فتبلغ أطراف العالم في كل ليلة. انه لعمركم انتصار للعربية، و إن كان للاستعمار فيه مآرب أخرى يقصدها أولا و بالذات، ولكن الدعاية للعربية بعمله هذا حاصل غير مقصود، بل مناقض لقصده.

أيها الإخوة: إن أسرة المجمع أصبحت أسرة عربية لا تخالطها عجمة، ولا يطرق ساحتها دخيل، ولا يداخل نسبتها إقراف ولا هجنة، فلنعمل للغتنا بأنفسنا، ولنسكب عليها عصارة أرواحنا ولنضاعف جهودنا، ولنشدد حيازيمنا، ولنشحذ عزائمنا، ولنوجه كل قوانا لخدمتها والذب عن حرماتها، ولنعلم أنه إن أصابها سوء ونحن عصبة إنا أذن لخاسرون، ولسنا لعدنان ولا لقحطان إن سيمت العربية ضيما ونحن حماة ثغورها، ولعل إخواني الأعضاء الجدد يشاركونني في اليقين بأنكم ما أوليتمونا شرف العضوية بهذا المجمع للراحة ولين المهاد، و إنما لنتحمل بهذه العضوية أعباء تستدعي سهر العيون و إنضاء العقول والقرائح

ومتاعب التنقيب على ما أودع الأسلاف في هذه الأسفار من كنوز، فلنوطن أنفسنا على ذلك كله برضى واطمئنان، وإنها لصفقة رابحة.

أيها الإخوة: إن اللغة العربية كالدين يحملها من كل خلف عدوله، لينفوا عنها تحريف الغالين، وزيغ المبطلين، وانتحال المؤولين، وأنتم أولئك العدول، فانفوا بجد وإخلاص عن هذه اللغة زيغ المبطلين من هذا الجيل الذين أصبحوا يتنكرون لهذه اللغة ويعفرون في وجهها، وقد فاتهم أن يحصلوا منها على طائل، فأصبحوا يرمونها بالعقم والجمود، وعدم المسايرة لركب الحضارة، ويرتضخون لكنة، لا هي بالعربية ولا هي بالصالحة لأن تخلف العربية ويتمردون على البيان العربي، وعلى مناحي الشعر العربي، وعروضه وقافيته ورويه، ويلوون ألسنتهم بالسوء في ذلك كله.

أيها الإخوة: أعيذكم بشرف العروبة أن تكونوا كأعضاء المجمع الفرنسي: دعوا بالخالدين فأوهمهم هذا الوصف أنهم خالدون حقا فركنوا إلى الكسل وأصبحوا سخرية الساخر.

أيها الإخوة: أنا وإخواني الأعضاء الجدد الذين أتكلم باسمهم نتقدم أولا بالحمد لله على أن شرفنا بالانتساب إلى هذه الأمة الجليلة، وعلى أن فتق ألسنتنا على لغتها الحرة الأصلية، وعلى أن رزقنا من بيانها ما نستطيع به أن نعلق بغبار جياد السبق في ميادينها.

ثم نتقدم بالثناء العاطر على إخواننا السابقين الأولين من أعضاء المجمع على ما أنفقوا في سبيله من وقت وجهد، وأفاضوا عليه من معنويات راسخة، ونفضوا عليه من ألوان ثابتة جميلة، على ما وسعوا من آفاقه وميادينه، وعلى ما وسعوا فيه من إلحاق إخوان لهم من أقطار العروبة تكثرا بهم، والعزة للكاثر،

وتعاونا على هذه الأم البرة، والتعاون على البر (بفتح الباء) كالتعاون على البر (بكسر الباء) كلاهما منقبة وقربة وحسن أحدوثة، وقالة خير فاشية.

ثم نتقدم بالشكر لشعب الجمهورية العربية المتحدة وحكومتها ورئيسها على احتضانهم للقومية العربية التي هي مدد هذا المجمع، وحسن رعايتهم للغة العربية التي هي وظيفة هذا المجمع، بل على إمدادهم لهذا المجمع بوسائل الحياة.

أيها الإخوة: أنا سعيد بأن أتكلم في هذا اليوم، وفي هذا المحفل ووطني الجزائر مقبل على استقلاله الذي اشتراه بالثمن الغالي، وستلتحق الجزائر بالركب بالعربي عن قريب، وسيخرج من أجيال المغرب العربي عمار لهذا المجمع، وحماة لهذه اللغة الشريفة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

واجب المثقَّفين نحو الأمة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوان :

رغب إلي جماعة من إخواني الأساتذة الذين يعز علي رد رغبتهم أن أحدثكم في هذه الليلة المباركة في هذا النادي العامر ، وما عهد نجد عندنا بذميم ، ولكنهم حددوا لي موضوع الحديث في جملة صاغها أخي الأستاذ العامل عبد السلام مزيان بلفظه وهي (كيف يؤدي المثقفون واجبهم نحو الأمة) وزعم الأخ الأستاذ سامحه الله أنه لا يضطلع بتفصيل هذا الموضوع وإعطائه حقه غيري، ولولا حسن ظني بالأخ الأستاذ ومتانة ثقتي بأخوته لقلت أن اختيار هذا الموضوع توريط لي زينه بذلك الزعم المغري . ولكن يشفع عندي للأستاذ مواقفه التي أذكرها فأشكرها في التقريب بين ألوان الثقافات الرائجة بهذا الوطن وفي التأليف بين أفراد المثقفين المتنافرين بطبيعة الحال لا بل أغنم فأعد الأستاذ من أمثلة القاسم المشترك عند علماء الرياضة إذ هو من الأفذاذ الذين تذوقوا ثقافتين تصطرعان بهذه الديار وعملوا للتوفيق بينهما للخير العام.

[1]- من محاضرة ألقاها الإمام في أحد نوادي تلمسان في 1943، وجدت مسودتها بين أوراقه.

وإذا خرجنا من الدعابة للأستاذ إلى الجد معه فان هذا الموضوع أثار اهتمام الأمة بطرفيها في هذه السنة وكثر خوض الخائضين فيه وهب في الرأي العام تيار شديد من المعاني المتصلة بهذا الموضوع عبرت عليها الأفعال قبل الأقوال وغمرت المجالس والمجتمعات سحب المناظرة والجدال والجواب والسؤال ، وكثر التحكك بين الطرفين المقصودين فيه وهما الأمة والمثقفون من أبنائها .

وأنا أزعم أني من المشتغلين بمراقبة هذه الحركات في الأمة والمعتنين بتسجيلها لأنها متعلقة بأعمالي الفكرية والتعليمية والإرشادية ، ولأنني متصل بالطرفين اتصالا وثيقا وعالم بما لكل منهما على الأخر من واجبات ، وعامل بجهدي في تقريب ما بينهما من مسافة وإزالة ما بينهما من تنافر.

فحكمي على هذا الشعور الجديد في هذه الأمة أنه وليد التطورات والحوادث المفاجئة التي تعمل في تكوين العالم كله تكوينا جديدا ، وان أول ما تفعله الحوادث طبع الأفكار والعقليات طبعا جديدا.

وان الأمم إذا اضطرم شعورها بالحاجة إلى الشيء اتجهت أنظارها إلي قادتها وتحركت ألسنتها بالتساؤل عن رجالها ،فإذا كانت سعيدة مهيأة للخير لباها رجالها من أول دعوة ووجدت قادتها في مقدمة الصفوف، وإذا كانت شقية مقدرا لها الذل والخذلان وجدتهم لاهين لاعبين أو متنابذين مضطربين منعزلين في أخريات القوافل منتشرين على هوامش ركب الحياة قانعين بالمدار الضيق الذي يدورون فيه مثقلين بالقيود المرهقة التي قيدتهم المعيشة بسلاسلها وأغلالها. فتفوت الفرص ويفوز السابقون المبكرون وتقسم مغانم الحياة وتبدل الأرض غير الأرض، والأمة ورجالها متباعدون مع قرب الدار، متقاطعون مع حرمة الجوار، يتصامون والألم

شامل ويتعامون والبلاء محيط، ويتمارون والنذر عريان ويمارون في الشمس وهي طالعة ثم يصبحون وقد فات العمل وخاب الأمل وحقت الكلمة، وهذه حالتنا وحالة أمتنا معنا والأمر لله.

أيها الإخوان :

إن هذا الموضوع الذي أرغمت على التحدث فيه موضوع لا يجري اللسان فيه إلا على أطراف مجددة وجثث ممدة وعوائق مما يقف بين الحلق واللسان، وعوا ثر مما يفصل بين الإنسان والإنسان وان الإنصاف فينا لقليل.

إن الحديث في هذا الموضوع يؤدي إلى تحريك أوتار طال العهد بسكونها، والى نفض غبار اطمأنت النفوس إلى ركوده، والى نقد خصال من الضعف والفسولة والخور عششت في نفوسنا حتى ألفناها وركنا إليها وأصبح الفطام عنها صعبا، وألبسناها خلاف لبوسها من الأوصاف والنتائج حتى أصبح الدخول في خلافها دخولا فيما لا يعني والتلبس بها إلقاء بالنفس إلى التهلكة. ونحلناها ما لا تستحق من الأسماء حتى أصبح المتصف بها يسمى بيننا حكيما وعاقلا وخيرا ومسالما ومداريا ومتجنبا للشبهات من الخمول والانكماش.

ولقد كانت هذه الخصال موجودة في طائفة من سلفنا وكانت محمودة في عرفهم ولغـة عصرهم لأنها كانت من الكماليات في حياة الأمة لأن كلمة الأمة إذ ذاك مجموعة وجانبها عزيز ومقوماتها ثابتة ومكانتها محترمة ومقامها بين الأمم مرفوع وميادينها عامرة بالرجال وخزائنها زاخرة بالأموال .فماذا عسى يضيرها بعد ذلك إذا جاءت منها طائفة مسالمة وطائفة متجنبة للشبهات وطائفة متصوفة وطائفـة متقشفة وطائفة متمزهدة وطائفة متعبدة وطائفة تسكن

الخلوات وطائفة تعمر حلق الذكر. كان المأمون في عصره قائما بعز الخلافة وفي عزها عز الإسلام وكانت يده تفيض بالعطاء للناقلين والمترجمين لثمرات العقل البشري فماذا يضير الإسلام في زمنه إن يكون في الأمة طائفة آثرت الخمول والانزواء والتستر والانكماش؟ وماذا يضر السفينة إذا كان ربانها ماهرا ساهرا إن ينام جميع الركاب؟

وكان أحمد بن حنبل وطبقته في عصرهم يحملون الشريعة ويقومون بتحقيقها وفلسفتها ونشرها، وكان البخاري وطبقته يقومون بالرحلة لجمعها وتحريرها وتصفيتها.

وكان طاهر بن الحسين وأمثاله من القواد يقومون بحماية الثغور وتنظيم القوة، وكان الحسن بن السهل وأمثاله يقومون بتدبير المصالح العامة وجباية الأموال، وكان أبو يوسف وأحمد بن أبي دؤاد يقومون بتنفيذ القضاء و إقامة الحدود.

وكان ثمامة بن أشرس واضرابه يقومون ببيت الحكمة في الأمة وتكوين الفضائل.

وكان الأصمعي ويونس وأبو عبيدة واضرابهم يقومون بتدوين اللغة وحفظها، وكان الخليل وسيبويه وابن جني وأمثالهم يقومون بتفريعها وتخطيط مقاييسها، وكان الجاحظ وأضرابه يقومون بجلاء البيان العربي وترويضه للمعارف العقلية والنقلية، وكان النظَام وواصل وبشر بن المعتمر وأضرابهم يقومون بتوسيع المدارك العقلية وتلقيحها بلقاح منصف وتربيتها على أفانين الجدل والحجاج والاستدلال. وكان الآلاف من غيرهم يقومون بشعب الحياة الأخر ويعمرون ميادينها المتشعبة، فهل يضر الأمة أن تختار طائفة منها ما تستحقه من خمول وانكماش وغيرهما مما هي أمراض المثقفين اليوم من هذه الأمة؟

على أن الواقع الذي يجهله الناس وأنا أعَرفكم به لأنني أعرفكم به، هو أن تلك الطوائف التي شذت واعتزلت الحياة العامة في أيام عز الإسلام ليست إلاَ طوائف لا تستحق الحياة و إنها لم تجد في ميدان الحياة متسعا لأن تلك الميادين كانت عامرة بالأصلح، فتلك الطوائف لم تعتزل الحياة عن طوع واختيار بل عن قهر واضطرار هي طوائف اعتزلتها الحياة وليست هي التي اعتزلت الحياة ، هي طوائف منفية من الحياة لا منتفية منها.

يوجد رجل من مشائخ الطرق الدجالين في عصرنا هذا ولكنه حاذق في معاريض الكلام جاءه مريد من مريديه فقال له: إني طلقت الدنيا لأنقطع إليك و إلى خدمتك ، فقال له الشيخ: وماذا طلقت من الدنيا هل لك غنم؟ قال لا، قال هل لك تجارة هجرتها لأجلي ؟ قال لا، قال :هل لك فلاحة تركتها لأجلي؟ قال لا، قال هل لك زوجة وأولاد ؟ قال لا، قال إذن فالدنيا هي التي طلقتك وأنت المطلق لاهي. وكذلك حال تلك الطوائف التي ورثنا من آثارها السيئة هذا الخمول وهذا الانكماش وهذا الجهل بحقيقة الحياة، وبئس الميراث وبئس الوارثون.

طاف الإمام أبو إسحاق الأسفرائيني في بدء انحطاط الإسلام جبل لبنان وكان عامرا بالعباد المنقطعين عن الدنيا، فقال يخاطبهم: يا أكلة الحشيش تهربون ها هنا وتتركون أمة محمد تعبث بدينها المبتدعة، وان اقتصاره على ذكر الدين يدل على أن دنيا الأمة كانت محفوظة، ولو بعث في مثل زماننا لأضاف الدنيا إلى الَدين فقد ضاع كلاهما بخمول المثقفين.

أيها الإخوان :

هذه مقدمة كالمفتاح للكلام في المقصود وهي متصلة به معدودة من تمهيداته مشيرة إلى كثير من أصوله مرشدة إلى ما فيه الأسوة من المحدثين

بالقدماء، وإذا طالت فعذري إليكم أن المرتجل لا يستطيع ضبط لسانه كما يستطيع الكاتب ضبط قلمه فلنحول هذا اللسان عن مجراه، ولنحاول حمله على الجري في المقصود ومن حقكم على هذا اللسان أن ينطق بالحق ولو على نفسه: وإذا كان الحق يغضب أقواما فحسبه أن يرضي الحقيقة، وما وقفت بينكم موقف القائل ووقفتم مني موقف المستمعين إلاَ وقد أخذ الحق علينا عهدا أن يكون الخطاب من الضمير للضمير وان لا نؤثر العواطف على العقول وأن لا نتقارض الثناء المكذوب، وان لا نخون الفضيلة في اسمها، إننا مرضى ومن بلاء المريض رفق الطبيب به، إن رفق الطبيب خيانة لفنه وقدح في أمانته وزيادة في البلاء على مريضه، وما خير رفق ساعة يتجرع المريض بسببه آلام السنين.

أعيد الموضوع على أذهانهم وهو كيف يؤدي المثقفون واجبهم نحو الأمة؟ كلمة المثقف آتية من تثقيف الرمح وهو تقويم قناته بغمزها وتشذيب زوائدها الناتئة وإزالة الاعوجاج من كعوبها، ويقولون للغلام المتدرب على اللعب بالسلاح وعلى الرمي بالحراب والتلاعب بالرماح، غلام مثقف وهو وصف قريب الصلة بكلمة التثقيف، ولم تكن العرب تستعمل كلمة مثقف بالمعنى الذي نعرفه الآن. وإنما كانوا يقولون في مثله رجل لقن وزكن ويقولون في معنى الثقافة عندنا اللقانة والزكانة، ولما جاءت نهضتنا الحاضرة اختارت للدلالة على هذا المعنى كلمة الثقافة وجعلتها ترجمة لكلمة إفرنجية.

فالمثقف هو الرجل المهذَب المستنير الفكر المجوهر العقل المستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملم بجانب من معارف عصره.

وقد تتسع الثقافة بوفرة الحظ من الأخلاق وكثرة المعلومات وقد تضيق بقلتهما وقد تنقسم باعتبارات جنسية أو لغوية أو دينية. فيقال: الثقافة العربية أو الفرنسية و يقال الثقافة الإسلامية أو المسيحية مثلا، واني محدثكم عنها على حسب ما أتذوقه من روح الكلمة في مدلولها العربي وعلى ما أعلم من تطبيقها في العرف الشرقي الراقي في نهضته الفكرية الحالية، فان رأيتم في كلامي بعض المخالفة لمعناها الإفرنجي فعذري أني لا أعلم مدى ما يراد منها في ذلك الاصطلاح، و إنما أنبهكم إلى أن معنى الكلمة في الذوق العربي يرمي إلى أساس الثقافة هو حسن التربية وصحة الإدراك والتقدير للأشياء، وسلامة التفكير والاستنتاج العقلي واستقامة السلوك في معاملة الناس، و يرمي كذلك إلى اعتبار الأخلاق الفاضلة قبل كثرة المعلومات، ولعل هذه النقطة الأخيرة هي التي يختلف فيها النظران الشرقي والأوروباوي.

منزلة المثقفين في الأمم الحية:

والمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها.تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، و يقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير، وما زالت عامة الأمم، من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها ، تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف . تحتاج إليهم في أيام الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة ،و يغذونها من علمهم وأرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال، وتحتاج إليهم في أيام الخوف ليحلوا لها المشكلات المعقدة و يخرجوها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة.

والمثقفون هم حفظة التوازن في الأمم وهم القومة على الحدود أن تهدم وعلى الحرمات أن تنتهك وعلى الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حد

نفسه، يراهم العامي المقصر فوقه فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته، ويراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة فيتراجع عن العبث والاستبداد. إذا كانوا متبوعين فمن حق غيرهم أن يكون تابعا، أو كانوا في المرتبة الأولى فمن حق غيرهم أن يكون في الثانية ولا أضر على الأمم من الفوضى في الأخلاق والفوضى في مراتب الناس، ولكن هل عندنا مثقفون بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة؟ ومادام حديثنا في دائرة محدودة وهي الأمة الجزائرية بصفتها الحاضرة، وتفصيلنا للقول إنما هو على مقدارها فلنقل مخلصين: هل فينا مثقفون بالمعنى الصحيح الكامل لهذه الكلمة؟ ولنكن صرحاء إلى أبعد حد الحق أنه يوجد في الأمة الجزائرية اليوم مثقفون على نسبة حالها وعلى حسب حظها من الإقبال على العلم وعلى مقدار الوسائل التي تهيأت لها في ذلك – ولكن المثقفين منا قليل جدا لا في الكم والعدد ولا في الكيف والحالة، ولا نطمع في زيادة عدد المثقفين إلا إذا زاد شعور الأمة بضرورة التثقيف، وتهيأت أسبابه أكثر مما هي متهيئة الآن- ولا نطمع في زيادة الكيفية إلا إذا توحدت طرائق التثقيف وجرت على ما يوافق روح الأمة في دينها وعقائدها الصحيحة وتاريخها ولغتها وجميع مقوماتها، واتحدت الأهواء المتعاكسة واتفقت المشارب المختلفة في الأمة وصحت نظرتها للحياة وصح اختيارها لطرقها المناسبة لوجودها.

ولكن آفة الآفات وعلة العلل في ثقافتنا على ما هي عليه من النقص في العدد وفي الحالة إن عندنا ثقافتين مختلفتين تتجاذبان الأمة من أمام ومن خلف، إحداهما ثقافة إسلامية أساسها دين الأمة وقوامها اللسان العربي تقوم بها طائفة، والثانية ثقافة أروبية أساسها إطراح الأديان وقوامها اللسان الفرنسي تقوم بها أخرى، وبين الثقافتين تفاوت يكاد يصيرنا أمتين لا أمة واحدة، ولو اشترك الفريقان في اللسان المعبر لهان الأمر ولحصلت بعض الثمار المطلوبة من الثقافة، ولكن في كلا الفريقين عيوبا وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الإسلامية جهل مطبق بأحوال العصر ولوازمه، وأكبر عيوب المثقفين بالثقافة الأوروبية جهل

فاضح بحقائق الإسلام وأخلاقه وآدابه وبتاريخ الأمة وهو مصباحها المضيء، وبلسانها وهو ترجمانها الصادق. ونشأ عن اختلاف الثقافتين ما لا يحصى من المضار والمفاسد التي صيرت الثقافة فينا عديمة الفائدة، ومن أكبر مفاسدها الاختلاف في وجهات النظر فتختلف الآراء في المصلحة الواحدة على رأيين متناقضين وفي المفسدة الواحدة كذلك، وهنالك تنقلب الحقيقة ويصير المثقفون بلاء على الأمة ويصيرون داءها بعد أن كانوا دواءها. وأعداءها بعد أن كانوا أولياءها، ولا مخرج لنا من هذا إلا بالجمع بين الثقافتين في معين واحد.

وقد كانت الحالة قبل أعوام أدهى وأمر مما هي الآن، إذ كان أمر الدين في الأمة موكولا إلى طائفة من الفقهاء الجامدين لا يفهمون من حقائق الدين ولا من أسراره شيئا ولا يعلمون من لغته إلا قشورا، فكانوا يسيئون الظن بالمثقفين ثقافة أروبية ويحكمون عليهم بالخروج من الدين ويشوهون سمعتهم عند الأمة. يتولد من ذلك في نفوس جمهور الأمة نفور مستحكم منهم وسوء ظن بأعمالهم، وذهب خيرهم في شرهم وحقهم في باطلهم، فلا يرضون على أعمالهم ولو كانت صالحة لقيام التهمة، ولا يثقون بأقوالهم ولو كانت سديدة لعروض الشبهة. ولكن منذ قامت الحركة الإصلاحية على أيدي رجال مثقفين ثقافة إسلامية حقيقية عالية عارفين بمقتضيات الحياة في كل عصر قادرين على تطبيق الدين مع الاجتماع مع الحضارة عارفين بأقدار الرجال وقيم معارفهم مطلعين على أسباب التقدم والانحطاط مشاركين في معارف العصر، وناهيكم بإمام النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس رحمه الله فمنذ ذلك الحين خفت تلك النزعة البغيضة بخذلان الداعين إليها وتولد في الأمة شعور جديد بقيمة المثقفين بالثقافة الأوروبية وبأنهم من أبناء الأمة وأن الواجب الانتفاع من آرائهم والاستفادة من مواهبهم.

كيف يؤدي المثقفون واجبهم نحو الأمة

أيها الإخوان :

أما إذا صارحناكم بما نعتقده الحق في قيمة ثقافتنا ومثقفينا وفي مقدار انتشار الثقافة بيننا وفي آفات الثقافة والمثقفين منا ونقائصها ونقائصهم وعيوبها وعيوبهم فإننا نصارحكم برأينا في كيفية أداء المثقفين لواجبهم.

إن أول واجب على المثقفين إصلاح أنفسهم قبل كل شيء، كل واحد في حدَ ذاته، إذ لا يصلح غيره من لم يصلح نفسه، ثم إكمال نقائصهم العلمية واستكمال مؤهلاتهم التثقيفية حتى يصلحوا لتثقيف غيرهم، إذ ما كل مثقف يكون أهلا لأن يثقف، وإذا كان المثقفون قبل اليوم في حالة إهمال فحالتهم إذا هيأوا أنفسهم لتأدية الواجب تستلزم اهتماما آخر واستعدادا جديدا ،وثاني واجب هو إصلاح مجتمعهم كل طائفة مع كل طائفة بالتعارف أولا وبالتقارب في الأفكار ثانيا، ومن طبيعة الاجتماع أنه يحذف الفضول واللغو، وبالتفاهم في إدراك الحياة وتصحيح وجوه النظر إليها ثالثا، وبالاتفاق على تصحيح المقياس الذي تقاس به درجة الثقافة رابعا.

وهذه النقطة الأخيرة من ألزم اللوازم فإن التباعد بين المثقفين وخصوصا بين أهل الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، أدَى إلى فتح الباب وكثرة المتطفلين، فأنا من جهتي لا أرضى بحال أن أحشر في زمرة المثقفين كل من يكتب بالعربية الصحيحة مقالة في جريدة ولا كل من يستطيع أن يخطب في مجتمع، وهو مع ذلك عار من الأخلاق أو لا يحسن الضروريات من المعارف العصرية، وما أكثر هذا الصنف فينا، وهم يعدون في نظر الناس وفي نظر أنفسهم من المثقفين، وأنا أشهد الله أن هذا ظلم للثقافة ما بعده ظلم، كما أنه يوجد في قراء الفرنسية عدد

كثير من حملة الشهادات يزعمون لأنفسهم أو يزعم لهم الناس أو يزعم لهم العرف الخاطئ أنهم من المثقفين، وهذا كذلك ظلم للثقافة لا أرضاه .وان أمثال هؤلاء من الطرفين ما دخلوا في عمل إلا أفسدوه لنقص معلوماتهم أو فساد أخلاقهم وقصر أنظارهم وجهلهم بالتطبيق، ولا نستريح من هؤلاء إلا إذا جاء وقت العمل فإن القافلة إذا سارت وشدت الرَحال تخلف العاطل وظهر الحق من الباطل.

ولعل بعض السامعين يتشوف إلى معرفة السَرَ في هذا التفاوت بين طبقات المثقفين منا، وأنا أشرح لكم بعض السبب وهو أن قراء العربية لم يخرجهم معهد واحد ولا معاهد متحدة التعليم موحدة البرامج مرتبة الدرجات منظمة الشهادات على التحصيل، و إنما هم متخرجون من معاهد مختلفة لا تجمع بينها جامعة إلا كونها عربية ومعظمها غير منظم ولا مرتب ومعظمهم تلقى تعليمه كيف ما اتفق ولم يكمل دراسته ولا تحصيله، أما تربيتهم فجاءت ملونة بألوان تلك المعاهد.

ثم ألقى بهم الدهر إلى أمة متعطشة في أول عهدها باليقظة فهي لا تفرق بين صفو وكدر فكانت استفادتها منهم قليلة وربما ضروا أكثر مما نفعوا.

كذلك نعلم أن للثقافة الفرنسية في وطننا ثلاثة معاهد متباعدة الغايات متفاوتة الدرجات:

الأولى: الكليات الجامعة وما يوصل إليها، الثانية: دار المعلمين، الثالثة: المدارس الثلاث[1]، ومن المؤسف حقاَ أن أبناءنا في التعليم الجامعي انكبوا على

1 - هي المدارس التي أنشأتها فرنسا في الجزائر سنة 1857 في تلمسان و قسنطينة و الجزائر العاصمة لتخريج القضاة و المترجمين والأئمة.

الجانب المادي أكثر من الروحي والأخلاقي، فتخرج في جيلين بضع عشرات تناهز المائة من الأطباء والصيادلة ومثلها من المحامين، ودون العشرة من المهندسين، و إلى جانب ذلك كله دون العشرة في الآداب، ولم نر إلى جنب هذا العدد واحدا تخصص في الفلسفة أو في علم النفس أو في الأخلاق أو في فلسفة الاجتماع والتشريع، وتعليل هذا الاتجاه معقول من روح الأمة وحالتها المادية وليس من المناسب شرحه في هذه المحاضرة، و إنما نقول إن للتقليد أثرا كبيرا في هذا الاتجاه شأن الأمم التي تكون في درجتنا من الانحطاط .

و إني أذكر لكم على سبيل العبرة حكاية اتفقت لي: مرض والدي رحمه الله مرض الموت في دمشق وتسامع أصدقاؤه فزاره في بضعة أيام نحو عشرين طبيبا فسهرت ليلة عند صديقي الدكتور عزت أفندي شموط وهو شاب أديب مع براعته في فنه فأكبرت دمشق إذ كان فيها فوق المائتين من الأطباء من أبنائها ومن اللاجئين إليها أيام الحرب فقال صديقي الدكتور شموط: إن كثرة الأطباء في بلدة تدل على كثرة الأمراض والأوساخ فيها، وأنا أختار بلدة فيها عشرة مرشدين دينيين وعشرة أدباء وعشرة أطباء على بلدة فيها ثلاثمائة طبيب، لأن الأدباء يرققون عواطفها فتميل إلى الروحيات فتقل الأمراض، والمرشدون يعلمونها القصد في الأكل واللذات ويحضونها على النظافة، فهؤلاء أطباء ولكنهم يداوون المرض قبل وقوعه فإذا أفلت واحد، داواه الأطباء المعروفون، فأكبرت كلامه إذ كنت لا أنكره بذوقي.

ومن المؤسف أيضا أن دار المعلمين تهيئ خريجيها لأعمال خصوصية محدودة مقيدة بدور المعلم فيها طول عمره فلا يجد الوقت لتوسيع ثقافته بالمطالعة والكتابة والتطبيق، وكذلك القول في خريجي المدارس الثلاث وهذه القيود تشل الثقافة وتحصرها في المدار الضيق.

وإذا تمت الإصلاحات الأربعة جاء الخامس والأخير وهو الامتزاج بالأمة والاختلاط بطبقاتها والتحبب إليها ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية والدخول في مجتمعاتها ومعابدها ومشاركتها في عبادتها وفي الصالح من عوائدها ، فبذلك تحصل الثقة منها وتنقاد لكل ما تريده منها، وبذلك يسهل على المثقف أداء واجبه على أكمل وجه، وثقة الأمة بالمثقفين هي رأس المال في هذا الباب.

أما الواجب في حدً ذاته فهو في الجملة إيصال النفع والخير إلى الأمة ورفع الأمية والجهل عنها، وحثها على العمل وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيم التعاون بين أفرادها وتمتين الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمهم معاني الخير والرحمة والإحسان لجميع الخلق.

هذه أمهات المعاني التي تجهلها الأمة أو تغلط في فهمها وواجب المثقفين- بعد أن يستوثقوا منها بالمخالطة - أن يرفعوا عنها الجهل بها أو الغلط فيها. وكيف يكون ذلك؟ يكون بتنزل المثقف في مخاطبة العامي واستدراجه في كل اجتماع إلى بيان ما يجهله أو يغلط فيه، ويتخير لذلك المناسبات وأوقات الفراغ، وقد شاهدنا المثقفين إذا اجتمعوا بعوام الأمة وسمعوا سخافاتهم يقابلونهم بالضحك أو بالاحتقار، وهذه نقطة من نقط تضييع الواجب حيث يجب أداؤه. فما ضرهم- سامحهم الله - لو عملوا بما ذكرناه؟ إذا لقاموا بالواجب وأوصلوا للعامي خيرا ما بعده خير وأحسنوا إليه إحسانا يستحقه.

عيد الأضحى وفلسطين[1]

النفوس حزينة، واليوم يوم زينة، فماذا نصنع؟

إخواننا مشرَّدون، فهل نحن من الرحمة والعطف مجرّدون؟

تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد ونبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر.

وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحنتها ونغتنمّ، و نُعنَى بقضيتها و نهتمّ.

ويتقاضانا إخواننا المشرّدون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي، أن لا ننعم حتى ينعموا، وأن نطعم حتى يطعموا.

ليت شعري!... هل أتى عبّاد الفلس والطين، ما حلّ ببني أبيهم في فلسطين؟

أيها العرب، لا عيد، حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتُنجزوا لفلسطين المواعيد، ولا نحر، حتى نقذفوا بصهيون في البحر.

ولا أضحى، حتى يظمأ صهيون في أرض فلسطين ويضحى.

أيها العرب: حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئنّ بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء.

[1]- نشرت في العدد 53 من جريدة البصائر، 18 أكتوبر سنة 1948.

أيها المسلمون: افهموا ما في هذا العيد من رموز الفداء والتضحية والمعاناة، لا ما فيه من معاني الزينة والدعة والمطاعم، ذاك حق الله على الروح، وهذا حق الجسد عليكم.

إن بين جنبيّ ألماً ينتزّى، و إن في جوانحي ناراً تتلظّى، و إن بين أناملي قلماً سُمته أن يجري فجمح، وأن يسمح فما سمح، و إن في ذهني معاني أنحى عليها الهم فتهافتت، و إن على لساني كلمات حبسها الغم فتخافتت.

فلو أنّ قومي أنطقتْني رماحُهم ❋ نطقت ولكن الرماح أجَرّتِ

2 - في التربية والتعليم

العربية : فضلها على العلم والمدنية ، وأثرها في الأمم غير العربية[1]

أيها الإخوة الكرام:

كلفني الأستاذ الرئيس أن أحاضر هذا الجمع العربي الحاشد بكلمات في ناحية زاخرة من نواحي لغته الجليلة، وجانب عامر من جوانبها الفسيحة - وهو فضلها على العلم والدنية وأثرها في الأمم غير العربية – إشادة بفضل هذه اللغة الشريفة، في هذا الاحتفال العلمي، ووفاء ببعض حقها علينا وحفزا لهممكم- وأنتم أبناؤها البررة- أن تهن في خدمتها أو تقصر في حقها، وإعلانا للمعنى الذي ترجمت محاسنه واضطلعت بحمل أسراره.

ثم عهد إلي الأستاذ أن أكتب ما ألقيه عليكم ليعم نفعه السامعين والقارئين. وإن هذا الموضوع الذي سامني الأستاذ الكتابة فيه موضوع علمي تاريخي لا تعلق الحافظة بأسبابه كلها ولا تقوى على جمع أطرافه، وإنما عماده البحث والتنقيب وإقامة الشواهد وحشد النصوص، وهذا ما لا يسعه وقت التكليف وهو يومان تتخللهما فروض المجلس الإداري وواجبات جمعية العلماء. لذلك كله سلكت في الكتابة مسلكا أدبيا يستمد من الخيال أكثر مما

[1] - الخطاب الذي ألقاه الأستاذ البشير الإبراهيمي، نائب رئس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في أحد أيام اجتماعها العام الماضي تفضل الأستاذ بتقديمه لهذه المجلة:

يستمد من الحقيقة ويعتمد على الخطابة أكثر مما يعتمد على البره، ويرمي إلى إلهاب الحماس في نفوسكم أكثر مما يرمي إلى تقرير الحقائق فيها.

فإن بلغت رضاكم بما تسمعون فذلك، وإن قصرت عن الغاية كان ضيق الوقت وسعة الموضوع شفيعي في التقصير.

أيها الأخوة:

انشقت اللغة العربية من أصلها السامي فيه عصور متوغلة في القدم، وجرت في ألسنة هذه الأمة التي اجتمعت معها في مناسب المجد وأرومات الفخر، وشاء الله أن يكون ظهورها في تلك الجزيرة الجامعة بين صحو الجو وصفو الدو والمحبوة بجمال الطبيعة ومحاسن الفطرة لتتفتق أذهان عمار تلك الجزيرة عن روائع الحكمة مجلوة في معرض البيان بهذا اللسان، وقد كانت هذه اللغة ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم. وفي أوضاع هذه اللغة من مزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها.

وهذه المدنية التي تردد لفظها الألسن ويصطلح المؤرخون على نسبتها إلى أمم مختلفة ويميزون بينها بطوابع خاصة ويشتد المتعصبون في احتكارها لأمة دون امة كأنها خلقت معها أو كأنها ذاتية لها، هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمة وتأخذه أمة عن أمة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل وما يؤثر فيها من عوامل. وخير الأمم وأوفاها للمدنية هي الأمة التي تقوى الجهات الصالحة في المدنية وتكمل النقائص الظاهرة فيها، وتسعى في نشرها وإشراك الناس كلهم في خيراتها ومنافعها، وخير اللغات ما كانت لسانا مبينا للمدنية تسهل على الناس سبيلها وتمهد لهم مقيلها.

وقد أصبح احتكار المدنية لأمم خاصة تقليدا شائعا متعاصيا عن التمحيص والنقد، من هذا الباب احتكار الغربيين للمدنية القائمة اليوم، وما هي في الحقيقة إلا عصارة الحضارات القديمة ورثها الغربيون عمن تقدمهم، وقاموا عليها بالتزيين والتحسين والتلوين وطبعوها بالطوابع التي اقتضاها الوقت وانتحلوها لأنفسهم أصلا وفرعا، ولا تزال التنقيبات عن مخلفات الحضارات القديمة تكشف كل يوم عن جديد يفضح هؤلاء المحتكرين ويقلل من غرورهم.

ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات.

أيها الإخوان :

ازدهرت حضارات الأمم القديمة من العرب وفارس والهند والصين ومصر واليونان والرومان وزخرت علومها، وكانت كلها مبنية على أصول عامة مشابهة، وكانت لكل حضارة لغاتها المعبرة عن محاسنها والكاشفة عن حقائقها، وكان لتلك اللغات أثر بين في بقاء الحضارة وانتشارها، وكل من بقاء الحضارة وانتشارها يتوقف على ما في اللغة من قوة وحياة واتساع، فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء، كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء. ثم اندثرت تلك المدنيات والعلوم إلا ما بقي من أثار الأولى منقوشا على الأحجار، وما بقي من أثار الثانية مكتوبا في الأسفار. ولولا اللغات لم نتبين من الحضارات ما تبيناه.

أيها الإخوان :

كانت الحضارات القديمة تقوم على تعبد يسد شعور النفس البشرية بالخضوع إلى قوة أعلى منها، فإن لم يكن هذا التعبد حقا طغت عليه الخرافة وأصبحت الخرافة جزءا من المدنية. وتقوم على تشريع يوزع العدل بين الناس ويحفظ مصالحهم الدنيوية، فإن لم يستند هذا التشريع على وحي سماوي أو نظام شوري طغى عليه التحكم والاستبداد و أصبح الاستبداد جزءا من تلك المدنية. وتقوم على نتاج القرائح البشرية من علوم، فإن لم تكفل القرائح حرية شاملة لا بسها التزوير والكذب وأصبح التزوير والكذب جزءا من تلك المدنية. وتقوم على لغة تسع تلك المدنية بيانا وإفصاحا، فإن ضاقت اللغة خسرت المدنية، و إن حضارة اليوم لم تسلم من بعض هذه النقائص والعيوب.

كانت هذه حال الحضارات إلى أن جاء الإسلام بالحضارة التي لا تبيد والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة، فكان التوحيد أساسها والفضائل أركانها و التشريع الإلهي العادل سياجها واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها. وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة على القواعد الثابتة مما ذكرناه.

وقامت اللغة العربية ببيانها على أكمل وجه، وكانت الأمة المدخرة لتشيد هذه الحضارة التي نسميها بحق الحضارة الإسلامية هي الأمة العربية.

فهم العرب لأول عهدهم بالإسلام وبإرشاد القرآن أن هنالك أمما قد خلت عمرت الأرض ومكن لها الله فيها، وكانت أكثر أموالا وأعزّ نفرا واثبت آثارا، وامتثلوا أمر القرآن بالسير في الأرض والنظر في آثار تلك الأمم والاعتبار بمصائرها وعواقبها، نبههم القرآن إلى أن مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا

قليلا، فكان هذا الإرشاد القرآني المتكرر حفزا إلى التنقيب عن آثار المدنيات القديمة ودراستها والاطلاع على الصالح النافع منها والأخذ به. وكان من آثار هذا التنبيه القرآني أن تفتحت أذهان المسلمين- ولا أعنيكم- إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها، وكان من فضل القرآن على العالم أنه أبقى بهذا الإرشاد على علوم كادت تندرس وعلى آثار مدنيات كادت تنطمس.

إن الفائدة الكبرى التي يعلقها القرآن على السير في الأرض والوقوف على آثار الأمم البائدة هي الاعتبار بحال الظالمين وعقبى ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس المدنيات فيقيم العدل، و إذا جاء العدل جاء العمران، و إذا جاء العمران قامت المدنية، وكان العدل سياجها، والعلم سراجها وهذه مدنيّة الإسلام.

إن إرشاد الإسلام للمسلمين بأخذ الصالح النافع أينما وجد هو الذي دفعهم بعد تمكن سلطانهم وتمهد ملكهم إلى البحث عن آثارهم العقلية للأمم التي سبقتهم، فاطلعوا على ما أنتجت قرائح يونان وفارس والهند في العلم والآداب فنقلوها إلى لغة القرآن ووجدوا فيها خير معين على ذلك.

أيها الإخوان

هنا الجانب العامر من لغتكم، وهنا النقطة التي سقنا هذا الحديث كله ومن أجلها، وهنا الموضوع وهو فضل اللغة العربية على العلم المدنية.

أيها الإخوان :

لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند ولألزمتم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات،

ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته.

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذا ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون.

قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة، وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة الذي إما إن تنقله إليك فيكون قوة فيك، وإما أن تنقل أليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك. وقد تفطن أسلافنا لهذه الحقيقة فنقلوا إليه.

وقد قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل وبنقله إلى الأواخر عن الأوائل، وبذلك طوقت العالم منه لا يقوم بها الشكر، ولولا العربية لضاع على العالم خير كثير.

أيها الإخوان:

إنّ كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا على طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم، عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها وأنهم يحمدون للدهر أن هيأ لهم مجاورة المسلمين

بالأندلس وصقلية وشمال إفريقيا وثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما اخذوا واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا، ولا يزال هؤلاء المنصفون يذكرون معاهد الأندلس العربية ومعاهد شمال فارقيا ومعاهد الشام على الحضارة القائمة، ولا يزالون ينتهجون بعض المناهج الدراسية الأندلسية في معاهدهم إلى الآن، ولا يزالون يردون كل شيء إلى أصله و يعترفون لكل فاضل بفضله.

وها هنا، أيها لإخوان، مسألة يجب الكشف عن حقيقتها، فقد كثرت فيها المغالطات وجني عليها تعصب المتعصبين من ذوى الدخائل السيئة من الغربيين ومقلدتهم حتى أصبح باطلها حقا و كذبها صدقا ووهمها حقيقة، وحتى أصبح هذا الوهم من المسلمات التي لا تقبل الجدل عند أبنائنا الذين تلقوا العلم على أيدي أولئك المتعصبين، وهي أن العرب ليس لهم فيما ترجموا إلا النقل المجرد، وأنهم لم يزيدوا شيئا في التراث الفكري الذي نقلوه، وأن وظيفتهم في هذه الوساطة وظيفة الناقل الأمين الذي ينقل الشيء كما هو ملفوفا من يد إلى يد.

أغلوطة ملأت كتب الكثير منهم وترددت على ألسنتهم يمهدون بها إلى وصم العربي بأنه بليد الفكر جامد القريحة سطحي التفكير مسدود الشهية العلمية، و يتوسلون بذلك إلى تزهيد العربي في مزايا إسلامه واحتقاره لها ولهم.

والحقيقة التي يؤيدها الواقع و يشهد بها المنصفون منهم أن العرب حينما نقلوا علوم الأوائل كما كانوا يسمونها نقلوا بدافع وجداني إلى العلم ورغبة ملحة فيه، وأنهم نقلوا ليستقلوا وليستغلوا ولينتفعوا بثمرة ما نقلوا ولا يتم لهم هذا الاستقلال في العلم إلا بالتمحيص والتصحيح.

ومن الثابت عندنا أن عهد الترجمة كان عهد اضطراب في هذه العلوم المترجمة ردت فيه التبعة على المترجمين، ثم انجلت الرغوة وعمل الفكر العربي

الوقاد عمله فصحح أغلاط الفلاسفة وصحح نظريات الرياضة، وجاء دور الاجتهاد في هذه العلوم فاستقل الفكر العربي بالفلسفة وكيفها علي ذوقه الخاص. واستنبط في هذه العلوم طرائق وأنواعا لم تكن معروفة من قبل للأوائل، وصحح العلل وكشف عن الأوهام وانتقد انتقاد المستقبل. وما كان الفارابي وابن سينا وأبو سليمان المنطقي في المشارقة ولا ابن باجة وابن طفيل وابن برجان وابن رشد وبن الهذيل، في الأندلسيين، بالمقلدين في علوم الأوائل.

أيها الإخوان:

إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة. ومن يستقرئ خاصية هذه اللغة لعلم الطب وحده يتبين مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع.

وقد كانت هذه في القرون الوسطى يوم كان العالم كله يتخبط في ظلمات الجهل هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم وآونة ونصرته .

أيها الإخوان:

هذا فضل لغتكم على المدنية الإنسانية وفضلها على الأمم غير العربية، وأما فضلها على الأمم العربية فإنه يزيد قدرا وقيمة على فضلها على الأمم الأخرى، وإذا قلنا الأمم العربية، فإننا نعني الأمم الإسلامية كلها، لأنها أصبحت عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام.

فاللغة منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلها ظله كانت سببا في تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أذواقهم وتوحيد مشاربهم.

و إن هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس. ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية، وقد وقع بعض هذا ولكنه من القلة بحيث لا يظهر أثره في الحركة العامة للأمة.

إن الأمم التي دخلت في الإسلام متفاوتة في الإدراك والذكاء، متفاوتة في القابلية والاستعداد، متفاوتة في التصوير والتخيل، ولكن اللغة العربية فتحت عليها آفاقا جديدة في كل ذلك ما كانت تعرفها لولا العربية، ودفعتها بما فيها من قوة وبما لها من سلطان إلى التفكير والتعقل على منهج متقارب، وحفزت الأفكار الخامدة إلى التحرك وزادت الأفكار المتحركة قوة على قوة.

أيها الأخوان:

إن اللغة العربية هي التي قاربت بين الفكر الفارسي المنفعل القلق وبين الفكر البربري الرصين الهادئ ثم هيأت لكل فكر قابليته.

واللغة العربية هي التي سهلت لهذه الأمم المختلفة أسباب العلم والمدنية ومهدت لها الطرائق المؤدية إليهما حتى أخذت كل أمة حظها منهما.

واللغة العربية هي التي أفضلت على العلماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية و الفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة. فبحثوا في كل علم بحثوا في كل فن وملأوا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في البنات وكتاب أبي عبيدة في الخيل وكتاب الهمذاني في تخطيط جزيرة العرب وكتاب الجاحظ في الحيوان وكتب الأئمة في الطب والنجوم والإبل، رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها، وعلم مقدار أفضالها

على الأمة العربية. كما أن من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة وشعر الشعراء الوصافين من الأندلس يتجلى له أي أفضال أفضلته العربية على تلك القرائح الوقادة التي وجدت في العربية فيضا لا ينقطع مدده، وأضافته إلى فيض الاستعداد. وما أمتن الإنتاج الأدبي إذا كان يصدر عن اتساع في اللغة واتساع في الخيال.

أيها الإخوان:

إن النهضة العربية الحاضرة في الشرق مفتقرة إلى كثير من المصطلحات العلمية والصناعية. وما زلنا نقرأ من سنوات عن اهتمام قادة النهضة بهذه المشكلة ونقرأ اختلافا في الوجهة، وهل الأصلح البحث عن مصطلحات عربية أصلية، أو استعارة هذه المصطلحات من لغات العلم الأجنبية، وأن غاية ما آستنجد به أصحاب الرأي الأول المعاجم اللغوية، وأعتقد أنه لو كانت الكتب العلمية والفنية التي كتبها أسلافنا موجودة بين أيدينا ولم تغلها غوائل الدهر لوجدنا فيها من هذه المصطلحات ما يفي بحاجتينا أو يقارب، ولكنها- ويا للأسف- ضاعت، علينا بضياعها ثورة لا تقوم بمال.

هذا كتاب الحيوان لأبي حنيفة شدت في طلبه الرحال من عشرات السنين وأنفقت على تحصيله بدر المال، و تبارى هواة الكتب في طلبه في جميع أقطار الأرض، فلم يعثر له على أثر. وان من يقرأ ما ينقله عنه ابن سيده في كتاب المخصص يسترخص في سبيله كل غال ويستسهل كل صعب.

أيها الأخوان:

هذا عرض بسيط لبعض ما للغتنا من فضل على العلم والمدنية. وأن هذا المبحث في حد ذاته موضوع طريف يحتاج إلى بحث عميق ودراسة مستضيفة، ويتطلب جهدا قويا ووقتا متسعا. ولو أن باحثا عربيا يساعده وقته وحاله على استقراء هذا الموضوع لكتب فيه المجلدات، ولبث في ناشئتنا روحا جديدة من الحماس للغتهم والتعلق بها والكد في تحصيلها والتعاظم بجمالها، ولكان ذلك مقاوما لروح التزهيد الخبيثة التي لا بست عقولهم.

أيها الإخوان:

إن المستعربين من علماء المشرقيات فريقان متفقان في الاعتقاد بجمال هذه اللغة والاعتراف بمزاياها على العلم والمدنية، مختلفا الدواعي والبواعث في معاملتها .فريق ينظر إليها نظر الهون والمصلحة فينادي بموتها ويعمل على موتها ويزهد فيها الناس ويتجنى عليها وينحلها العيوب.

وفريق ينظر إليها نظر العلم المجرد فيتعلمها بإخلاص ويحض على تعلمها ويشيد بذكرها في المحافل والكتب.

وإن لهذا الفريق في خدمة هذه اللغة أيادي بيضاء يستحقون عليها الشكر العظيم من أبناء هذه اللغة. فكم كتبوا عنها مؤلفات وكم عقدوا للبحث عن دقائقها مؤتمرات، وكم طبعوا من أسفارها القيمة في اللغة والأدب والتاريخ و العلوم، ولو لم يكن من فضلهم عليها إلا إحياء أمهات علمية عجزنا نحن عن إحيائها لكان ذلك موجبا لعرفان جميلهم، وإذا كان فضل العربية عليهم في القديم عظيما، فقد قابلوا الفضل بفضل ولهم الشكر على كل حال. إن في هذه

النقطة موضع اعتبار، وهي انه إذا كان الأجنبي عن هذه اللغة يعرف لها فضلها فيحيي من أثرها ما استطع، ويحث قومه على تعلمها والاستفادة من ذخائرها، وحكومته من ورائه تجمع له مئات الآلاف من أسفارها القيمة، فماذا صنعنا نحن ونحن أبناؤها حقيقة؟

الحق أن ما صنعناه نحن لهذه الأم ضئيل، و إن ما أنفقناه في سبيلها قليل، ولكن النية في خدمتها صحيحة والرغبة في تعلمها ملحة.

وعلى الله قصد السبيل

التعليم العربي والحكومة[1]

قضية واحدة من بين عشرات القضايا، يتجلّى فيها كل ما صرّحنا به، ولمّحنا إليه، من معاملة الحكومة للتعليم العربي، وتصميمها على محوه، بالتضييق والمعاكسة، واتخاذها من هذه القوانين والقرارات سبلاً إلى ما تريد من ذلك، وهذه القضية تشهد بكثرة الإجراءات وتعقيدها، وتكشف عن مقاصد الحكومة منها، وتقيم لنا العذر فيما نبديه من تألّم، وما نجهر به من تنديد بالحكومة ومعاملاتها، وتشهير بقوانينها وقراراتها، وفيما نصارحها به من أننا لا نرضى بهذه القوانين لأنها مفروضة علينا فرضاً في أمر يتعلق بنا وحدنا، وهو ديننا ولغتنا، ولا نحترمها، لأنها باطل، والباطل لا يحترم، ولا نقرّها، لأنها حرب على ديننا ولغتنا، ولا نحتملها ولو أدّت إلى إغلاق جميع المدارس دفعة واحدة، وأننا لا نرضى إلا بالحرية الصريحة، فإن لم تكن فالموتة المريحة، وإنما يقبل العقلاء المقبول، وإنما يعقلون المعقول؛ وإذا كان للقويّ مأربٌ في قتل الضعيف، فمن السماجة أن يسنّ لقتله قانوناً، بل من الشهامة أن يسنّ لذبحه سكيناً.

وقبلُ وبعدُ فإن هذه القضية التي نصفها اليوم، شهادة قاطعة على ظلم الاستعمار، ونموذج من تعنّته ومصادرته للحق، وبيانٌ واضح لطريقة من طرائقه في حرب الدين والعلم، ووسليةٌ من وسائله في قتل معنويات الشعوب، وعنوانٌ

[1] - نشرت في العدد 67 من جريدة " البصائر "، 14 فيفري سنة 1949.

على مخازيه التي منها أن يعتبر الإسلام غريباً وهو في داره، والعربية أجنبية وهي في منبتها.

هناك على مقربة من الحدود الفاصلة بين مقاطعتي الجزائر وقسنطينة، قرية صغيرة من قرى بني منصور، تدعى " ثيغليتْ" تابعةً في التصرّف الاستبدادي لحوز(مايو)[1].طاف بأهلها منذ سنوات طائف من الشعور الديني، واخترقت آذانهم الأصوات المتعالية من جمعية العلماء في الدعوة إلى التعليم العربي، فأنكروا حالتهم وحالة أبنائهم من الجهل والأميّة، إذ كانوا محرومين من كل ما يسمّى تعليماً، فأجمعوا أمرهم وكوّنوا جمعية، وأسّسوا كتّاباً لتعليم أبنائهم، على قدر حالهم، ومبلغ مالهم، واتصلوا بنا اتصال المسلم المسترشد، بأخيه المرشد. فعينّا لها معلماً لم نأت به من مصر، ولا من العراق، بل من عمالة قسنطينة، وشرع في تعليم الأولاد تعليماً ابتدائياً بسيطاً ليس فيه كيفية تجطيم الذرّة، ولا كيفية تحضير القنبلة الذريّة، و إنما هو تعليم لأشكال الحروف العربية وتركيب الكلمات منها، وما مضت أسابيع حتى هاجت الحكومة وماجت، ونشط ممثّلها متصرف حوز"مايو"[2] وأعوانه نشاطاً، ما نظنهم يبذلون معشاره في تتبع المجرمين وقطّاع الطرق ومحترفي السوق الأسود، واستدعى المعلم وأعضاء الجمعية إلى إدارته مراراً، وأمرهم بإغلاق المدرسة، وطرد المعلم، وهدّدهم في كلامه بكلّ ما تمليه الغطرسة على جبار مستبد، ولما رأى أن كلامه لم يؤثر التأثير الذي يرضي فرعونيته، وأن المعلم لم يذهب، وأن المدرسة لم تغلق، - جلب الجميع بقوة "الجندرمة"[3]،

[1]- حوز " مايو": الحوز وحدة إدارية يسكنها فرنسيون وجزائريون. و " مايو" هي مدينة " مشدالة"حاليا.

[2] ـ اسم إفرنجي لقرية استعمارية واقعة في شرقي مقاطعة الجزائر في الحدود الداخلة بينها وبين مقاطعة قسنطينة.

[3] - اسم للحرس الوطني الفرنسي، وهم أدوات الترويع، و زبانية الإرهاب للجزائريين.

وأحالهم على دائرة البوليس السرّي متهمين بتهم لفّقها أعوانه- وهي تهم محضرة جاهزة في كل إدارة وبيد كل مدير، يستعملها كلما خانه القانون، وخذله الحق، فيرجع إلى تلك التهم لينتقم بها، فاستنطقهم البوليس السرّي لا باللسان بل بالعصا (الكرباج)، وأدخلهم السجن "رهن الاستنطاق" كما يقولون.

أما المعلم فقد نفاه حاكم "مايو" نفياً شفويّاً، وهدّده -إن بقي في حوزه- بالعقوبات الرادعة وبإخراجه بقوة الجندرمة مشياً على رجليه إلى بلاده (لأنه أجنبي)... يعني أنه من قرية تسمّى "تملوكة" تابعة لنانكين، من بلاد الصين، لا لقسنطينة، وكَذَبَ الجغرافيون ولو صداقوا...

تعاقبت التحقيقات في هذه المسألة "الخطيرة"، فلمّا تمت- وما كادت - أحيلت إلى قاضي الصلح بمايو، وحمل أولئك المساكين ثباتهم على دينهم، ورغبتهم في تعليم أولادهم، على أن ينفقوا النفقات، ويضحّوا بالمصالح، ويأتوا بالمحامين من الجزائر. ثم رفعت المسألة بعد حكم قاضي الصلح فيها إلى محكمة الاستئناف بالعاصمة، فتضاعفت على المساكين الأتعاب، وتعطّلت الأعمال، وانفتح عليهم بابٌ لا يسدّ من نفقات الذهاب والإياب وأجور المحامين، وعلى ذلك كله فهم صابرون، محتسبون عند الله ما نالهم من أذىً في أبدانهم، ونقص في أموالهم، معتقدون أن العاقبة للمتقين...

ونودي على القضية في محكمة الاستئناف في الأسبوع الماضي بعد حول كامل و زيادة من يوم نشأت، ولكنها لم تُفصل بل تأجّلت، ولا يعلم إلا الله بماذا تنتهي؟

* * *

من لي بمن يسجّلها و يعجّلها لعنةً خالدةً على الاستعمار؟ ومن لي بمن يزيحها ولا يرجيها سبةً تالدةً له و لأنصاره في العالمين؟ ومن لي بمن يصّبها ولا يغبّها دموعاً سخينة على جدث الإنصاف وعلى رُفات المنصفين؟ ومن لي بمن يرسلها صارخةً صاخَّةً في آذان أدعياء الديمقراطية ودُعاتها والمدّعين لها، أينما حلّوا، أن يتصدّقوا علينا مشكورين بالكّف من هذه الدعوة الدعية، فقد غثت ورثت، وسمُجت و(خمجت)[1]؟

قضية بسيطة، أساسها ظلم، وحائطها بغيٌ، وسقفها عدوان، وأصلها الأصيل "فتح مكتب قرآني بدون رخصة حكومية" تتدحرج من محكمة إلى محكمة، ومن حاكم إلى حاكم، حولاً كاملاً: أفي الحق هذا؟... كلا.

وفي كل دور من أدوارها يتجشم المتهمون فيها قطع مائتي ميل ذهابًا و إياباً، و إنفاق ما هم في حاجة إليه لقوت عيالهم في الركوب وأجور المحامين، أمن الإنصاف هذا؟... كلا.

إن حولاً كاملاً ليكفي لفضّ مشكلة برلين وما أشبهها من مشكلات العالم الكبرى، ولكنها لم تكف لفصل قضية جمعية بني منصور، المتعقدة المتشعبة التي ظهر فيها وجه الحق لرجال الإدارة فاتهموا وطالبوا وحرّروا التقارير واستعدوا فيها المحاكم العدلية، وخفي وجه الحق فيها على غيرهم. ولعل الذنب في هذا التطويل الذي استغرق حولاً كاملاً، محمول على الزمان الذي أصبح،... ولا بركة فيه.

[1] - هذه اللفظة عامية، ولعل لها أصلا من قول العرب " ماء خمجرير" أي متغير منتن.

وسلني أنبئك عمّن جندت الحكومة لهذه القضية التي نزعم نحن أنها بسيطة. إنها جنّدت كبير الجماعة، والحارس، والجندرمة، والبوليس السرّي والعلني، والمتبرع والمتصّرف، وأعوانه ورئيسه، وعامل عمالة الجزائر، وقاضي الصلح بمايو، وقضاة الاستئناف بالجزائر، كلّ هؤلاء مرّت بهم هذه القضية، وكلهم نظروا فيها وفي أوراقها وملفاتها.

أما الجانب الإداري من هؤلاء فيقول: إن هؤلاء المتهمين مجرمون، معتدون على القانون، و إن من العدل، ومن المحافظة على الأمن ردعهم وزجرهم، أما الجانب العدلي فلم نسمع كلمته الأخيرة، وأما نحن... فقد قال ديكتاتور"مايو" فينا كلمة ذهبية إذ قال لبعض الجماعة: لو أنكم جئتم بمعلم من طلبة الزوايا[1] - من بلاد القبائل- لما عارضتكم في شيء، ولوَجدتم مني المساعدة والإعانة. ولكنكم اتصلتم بجمعية العلماء وجئتم بالعلم من تلامذتها وأنصارها. وأنا لا أسمح أن يدخل إلى وطني (هذا الميكروب).

* * *

أنا مريض، والموضوع طويل عريض، وقد أصبحتُ بين عاملين: همّ يتجدّد وطبيب يتشدّد، و إن حق الضمير لأوكد عندي من حق الجسد، وليقع الاستعمار أو ليطرْ فإننا نتعلم لغتنا وديننا، ولوفي سمّ الخياط، أو على مثل حدّ الصراط.

[1] - جمع زاوية، وهي مراكز مشايخ الطرق الصوفية، وقد كانت قبل الاستعمار الفرنسي تقوم بجانب من التعليم الديني والعربي، ولكن الاستعمار سخّرها حتى أصبح معظم القائمين عليها مطاياه يرتكب الموبقات باسمهم، وهذه الطوائف هي الأسلحة التي كان يحارب بها جمعية العلماء، ولكن الله نصرها على التابع والمتبوع.

إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم[1]

وأوجّه النداء إلى جميع أبنائنا المهاجرين إلى المشرق العربي، أو إلى أطراف المغرب العربي، أو إلى أوربا، ثم أخصّص المهاجرين إلى تونس لأنهم كثرة، ولأن في أحوالهم لغيرهم عبرة.

إنكم يا أبناءنا مناطُ آمالنا، ومستودع أمانينا، نعدكم لحمل الأمانة الثقيلة، لاستحقاق الإرث، وهو ذو تبعات وذو تكاليف، وننتظرُ منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح.

وأنكم يا أبناءَنا فارقتم الأهل، وفيهم الآباء والأمهات، وفارقتم الديارَ التي خلعتم فيها التمائم، وفارقتم الوطن الذي له على كل حرّ كريم دّين! وفاؤه الحب، وكفاؤه النفع والجميل، وما هوّن فراقكم على آبائكم وهوّن فراقهم عليكم إلا الآمال اللائحة لكم ولهم في مستقبلكم، ولما تعودون به من علم يصحبه فخر، وحسنُ ذكر، وطيبُ أحدوثة.

إن آباءَكم يتخيّلون من وراء هجرتكم ما يعود به المجاهد المقدام من أجر وغنيمة، وما يرجع به التاجر المخاطر من أرياح وطرائف.

[1] ـ نشرت في العدد 9 من جريدة " البصائر"، 03 أكتوبر سنة 1947.

وإنكم لتتخيلون من وراء هجرتكم - وأنتم في ربيع الحياة - ما يفوق أفوافَ الربيع حسناً وجمالاً، ويفوق أزهارَه أريجاً وعطراً.

وإن الوطن - وهو أبو الجميع - يتطلع من وراء هذه الهجرة إلى إحياء وتعمير وإعادة مجد وبناء تاريخ، نحن نعلم أن الأب العامي الفقير حين يرضى بفراق ولده، ويزوّده ببعض ما يملك من قوت العيال الصغار طائعاً مختاراً مطمئناً، وإنما يفعل ذلك اعتقاداً بأن فعله تكفير عن جريمة الجهل، ومحو لوصمة الأميّة، وتنصّل من ضَعة الخمول، وأن الأب العالم الذي يرضى بذلك ويهون عليه، إنما يفعله معتقداً أن ولده سيكون أعلَم منه، وأوسع اطلاعاً، وأنفذَ بصيرة على نسبة من زمنه، وتطورات زمنه، ولا يعتقد غير ذلك منهم إلا مغرور بنفسه، الجاهلُ أحسن إدراكاً للزمن منه، وأن الوطن حين يرضى بخلوّه من أبنائه أنهم ما أخلوه إلا ليعمروه، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقوه شباناً عزلاً إلا ليعودوا إليه كهولاً مسلّحين بقوة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل.

يا أبنائي، إذا عرفتم هذا، وعرفتم واجبَ أنفسكم التي تحمّلت الأتعاب، وتجرّعت، مرارة الاغتراب، وذاقت طعم الحاجة والشدة، وواجبَ آبائكم الذين غذَوا وربَّوا، وأجابوا داعيَ العلوم فيكم ولبّوا، وواجب الوطن المجدب الذي جعلكم روّاده إلى القطر، وأرسلكم وانتظر، ورجا من إيابكم الحيا والحياة، إذا عرفتم ذلك كله، فماذا أعددتم لهذه الواجبات؟

إنكم لا تضطلعون بهذه الواجبات إلا إذا انقطعتم لطلب العلم، وتبتلتم إليه تبتيلاً، وأنفقتم الدقائق والساعات في تحصيله، وعكفتم على أخذه من أفواه الرجال وبطون الكتب، واستثرتم كنوزّه بالبحث والمطالعة، وكثرة المناظرة والمراجعة، ووصلتم في طلبه سوادَ الليل بياض النهار.

إن أسلافكم كانوا يعدّون في سبيل العلم من شروط الكمال فيه، بل كانوا، في دولة الرواية، يعدّون الرحلة للقاء الرجال من شروط الوجوب، فكانوا يقطعون البراري والصحارى والقفار، ويلقون في سبيله المعاطب والأخطار، وكانوا يجوعون في سبيله ويعرون، ويظمأون ويضحون، ولا يتشكون الفاقة والنصّب، ولا يعدّون الراحة إلا التعب، ولكنهم لا يضيّعون أوقاتهم - إذا وصلوا إلى أمصار العلم ولقوا رجاله- في مثل ما تضيّعون فيه أوقاتكم من إسفاف ولغو، بل كانوا يحاسبون أنفسهم على دقيقة أن تضيع إلا في استفادة وتحصيل.

فتعالوا نقارن سيرتكم بسيرتهم، وتحصيلكم، ثم نتحاسب على النتيجة؟

كانوا يقيّدون وأنتم لا تقيّدون، وكانوا ينسخون الأصولَ بأيدهم ويضبطونها بالعرض والمقابلة حرفاً حرفاً وكلمة كلمة، وأنتم أراحتكم المطابع، ويسّرت لكم الكتب، ورُبَ تيسير جلب التعسير، فإن هذا التيسير رمى العقول بالكسل، والأيدي بالشلل، حتى لا تجري في إصلاح الأغلاط المتفشية في تلك الكتب.

وكانوا يرجعون بالرواية الواسعة والمحفوظ الغزير، وينقلون الجديد من العلم، والطريف من الآراء والمفيد من الكتب، من المشرق والمغرب، ومن الغرب إلى الشرق، فانظروا بماذا ترجعون أنتم اليوم؟

وكانوا ينقطعون عن أهليهم وديارهم انقطاعاً متصلاً يدوم سنوات، وأنتم تزورون أهلكم وديارکم في كل موسم، وفي كل عطلة، ويزورونكم،، وتخاطبونهم في اليوم الواحد ويخاطبونكم.

الحقيقة أننا لا نسمّي رحلتنا اليوم رحلةً إلا بضرب من التوسع، كما نسمّي السفر بالطائرة سفراً، ونضعه بجنب السفر على الإبل.

يا أبناءنا، إن الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، إن الثانية منهما تنبني على الأولى قوة وضعفاً، و إنتاجاً وعقماً، و إنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقتَ كله؛ إن العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهره السهاد، وصرَف إليه أعنّة الاجتهاد.

لا تعتمدوا على حلق الدروس وحدها، واعتمدوا على حلق المذاكرة، إن المذاكرة لقاحُ العلم، فاشغلوا أوقاتكم حين تخرجون من الدرس بالمذاكرة في ذلك الدرس، إنكم إن تفعلوا تنفتح لكم أبواب العلم، وتلحْ لكم آفاق واسعة من الفهم.

لا تقنعوا بالكتاب المقرّر، واقرأوا غيره من الكتب السهلة المبسوطة في ذلك العلم، يسلحكم الملكة ويتسع الإدراك، وسينتهي الإصلاح الذي تقوم به إدارات جامعاتنا إلى اختيار كتب سهلة ممتعة في كل علم، تفرض عليكم قراءتها ومطالعتها، ثم كتب أخرى، في المعارف العامة، كالتاريخ، والأدب، والحكمة، والأخلاق، والتربية، فوطّنوا أنفسكم على ذلك من الآن، ورّوضوها على اختيار النافع المفيد من الكتب؛ ومن العار الفاضح أن لا نرى في الكثير من أبنائنا الذين تخرّجوا من الزيتونة، واتجهوا بفطرتهم إلى الأدب، من استوعب كتاب الأغاني قراءة، ولا في من اتجهوا إلى علوم الدين من استوعب قراءة الصحيحين والسنن، ولعمري ما سلاح الأديب إلا الأغاني وأمثاله، ولا سلاح الفقيه إلا تلك الكتب وأشباهها.

لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، و لا في الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفعون به الملل والركود، ولا

في قراءة الجرائد إلا بقدر ما تطلعون به على الحوادث الكبرى، وتصلون به مجاري التاريخ.

خذوا من كل ذلك بمقدار، ووفّروا الوقت كله للدرس النافع والمطالعة المثمرة.

لا تعتمدوا على حفظ المتون وحدها، بل إحفظوا كل ما يقوّي مادتكم اللغوية، ويُنمّي ثروتكم الفكرية، ويُغذي ملكتكم البيانية، والقرآن القرآن! تعهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة، وربّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق، وعلى الاستظهار به في الجدل، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون.

اتركوا المناقشات الحزبية والخلافات السياسية لأهلها، المضطلعين بها، المنقطعين لها، ودعوا كل قافلة تسير في طريقها، وكل حامل لأمانة من أمانات الوطن مضطلعاً بحملها، قائماً بعهده فيها، حتى تنتهي تلك الأمانات بطبيعتها إلى جيلكم، فتأخذوها بقوة واستحقاق؛ واعلموا أن كل مَن يدعوكم إلى ذلك إنما يدعوكم ليضلّكم عن سبيل العلم فهو مضلّ، وكل مضلّ مضرّ، أو ليتكثر بكم فهو غاشّ، وكل غاشّ ممقوت، أو ليلهيكم بما لا تحسنون عما تحسنون، فهو ماكر، وكل ماكر ممكور به، إن من يريد أن يتكثر بكم لا يتكثر إلا ليقللكم، ولا يتقوّى بكم حسًّا إلا على حساب إضعافكم معنى، فالحذر الحذر! فإن الوطن يرجو أن يبني بكم جيلاً قويّ الأسْر، شديد العزائم، سديد الآراء، متين العلم، متماسك الأجزاء، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة في الآراء، وهذا الفتور البادي على الأعمال، وهذا الخمول المخيّم على الأفكار، وهذا الاضطراب المستحكم في الحياة، وهذا الخلاف المستمر على السفاسف، فإذا جاريتم هذه الأهواء المتباينة،

واستجبتم لهذه الأصوات المتنافرة، ضيّعتم على الوطن جيلاً، وزدتم في بلائه ومحنته، وأطلتم مدة المرض بتأخير العلاج.

لا يعذلكم في حب وطنكم إلا ظالم، ولا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدّوا لتكونوا غداً جنود العمل.

إن وطنكم مفتقر إلى جيل قويّ البدن، قويّ الروح، مستكمل الأدوات من فضائل وعزائم، وإن هذا الجيل لمنتظرٌ تكوينه منكم، ومحال أن تخرج الحالة التي أنتم عليها جيلاً بهذه الصفات.

إننا نعلم أنكم تنطوون في أيام الطلب على خيالات وأماني من الراحة ورُفهنية العيش، وعلى آمال فسيحة في المستقبل، يوم تنتقلون إلى العمل، وتنتقلون إلى أهليكم تحملون الشهادات والألقاب.

وإن هذا هو منشأ القلق والاضطراب في نفوس الكثيرين من إخوانكم الذين يزاولون التعليم الآن.

فادفعوا عنكم هذه الخيالات، ووطّنوا النفوس على أنكم تلقوْن من البلاء والمجهدة في الحياة العملية أضعاف ما تلقون منهما في الحياة العلمية.

لا أقول لكم هذا تهويلاً، ولكن أقوله ترويضاً؛ ومن وطّن نفسه على المكروه هانت عليه الشدائد، و وجد كل شيء ضاحكاً باسماً جميلاً محبوباً.

ومن تخيّل الراحة وحكم أخيلتها في نفسه، ثم كذبته الآمال كان بين عذابين، أمضّهما كذب المخيلة.

يا أبنائي!

إن الزمن قد وضعكم وضعاً صيّركم جديرين بأن تطلبوا العلم لوجه الله، ولوجه العلم، لا للوظائف ولا للشهادات.

تطلبون الوظائف في تونس، فيحول بينكم وبينها نظام الاحتكار، وتطلبونها في الجزائر فتمنعكم منها سياسة الاستعمار! وربّ ضارّة نافعة !

إذا كانت السياسة الاستعمارية تجعل منكم جزائريين في تونس، ثم تجعل منكم فرنسيين في الجزائر، فاطغوا عليها بقوة الإرادة، وبقوة العلم، وبقوة الشباب، وكونوا وسطاً عامراً لا تظهر فيه الجزائرية ولا التونسية، ولا تفترق فيه الأنساب، وإنما تجمعكم فيه العروبة والإسلام، ووطنيتهما العامة؛ وإن الوسط هو الذي يسود في المستقبل القريب، وهو الذي تُمحى معه الخطوط الجغرافية، والحدود الوهمية.

لا تستشعروا الغربة فأنتم في وطنكم وبين أهليكم، وفي وطنكم الجامع.

وإن دم الجيل ومزاجه ليتعاطفان بالإلهام، فاجروا على إلهام الخير مع إخوانكم الشبان تنْمُ المحبة وتقوَ بواعث الخير.

إن في تونس تيارات مختلفة اقتضتها مقتضيات زمانية ومكانية خاصة، فإياكم أن تنغمسوا فيها، أو تكونوا في جانب دون جانب.

وإذا دعاكم منها داع فاعتصموا بالعلم الذي هاجرتم لأجله، وبالمعهد الجليل الذي تذوب بين جدرانه جميع الاعتبارات.

إلى أبنائي المعلمين[1]

أي أبنائي المعلَمين:

إنكم في زمن، كراسي المعلَّمين فيه أجدى علم على الأمم من عروش الملوك، وأعود عليها بالخير والمنفعة. وكراسي المعلَّمين فيه أمنع جانبا "وأعز قبيلا" من عروش الملوك: فكم عصفت العواصف الفكرية بالعروش، ولكنها لم تعصف يوما "بكرسي المعلم".

إنكم تجلسون من كراسي التعليم على عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمَة، فسوسوهم بالرفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل. إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمَة بين أيديكم، سلَمتهم إليكم أطفالا"، لتردوهم إليها رجالاً، وقدَّمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح وألفاظا" لتعمروها بالمعاني، وأوعية لتملئوها بالفضيلة والمعرفة. إنكم رعاة، وإنكم مسئولون عن رعيتكم. وإنكم بناة، وإن الباني مسئول عما يقع في البناء من زيغ أو انحراف.

إن من الطباع اللازمة للأطفال أنهم يحبَون من يتحبب لهم، ويميلون إلى من يحسن إليهم، ويأنسون بمن يعاملهم بالرفق، يقابلهم بالبشاشة والبشر. فواجب المربَي الحاذق المخلص، إذا أراد أن يصل إلى نفوسهم من أقرب طريق، وأن يصلح نزعاتهم بأيسر كلفة، وأن يحملهم على طاعته وامتثال أمره بأسهل و سيلة، هو أن

[1] - نشرت في العدد 68 من جريدة البصائر، 21 فيفري سنة 1949.

يتحبب إليهم، ويقابلهم بوجه متهلل، ويبادلهم التحية بأحسن منها، ويسألهم عن أحوالهم باهتمام، ويضاحكهم، ويحادثهم بلطف وبشاشة، ويبسط لهم الآمال، ويظهر لهم من الحنان والعطف ما يحملهم على محبته، فإذا أحبوه أطاعوه وامتثلوا أمره، وإذا أطاعوا أمره وصل من توجيههم في الصالحات إلى ما يريد، وتمكَن من حملهم على الاستقامة وطبعهم على الخير والفضيلة. فإذا ملك نفوسهم بهذه الطريقة – طريقة الترغيب – حبب إليهم المدرسة والقراءة والعلم. وإن الصغير لا يفلح في التربية و لا ينجح في القراءة إلا إذا أحبَ معلَمه كحبَه لأبويه أو أعظم، وأحبَ المدرسة كحبَه لبيت أبويه أو أشدَ. وكثيراً ما رأينا الصغار الذين يربيهم معلَموهم على هذه الطريقة الحكيمة يباهي أحدهم تربه بقسمه وبمعَلمه، ويباهي زميله في مدرسة أخرى بمدرسته، كما يتباهون في العادة بالآباء والبيوت. وما ذلك إلا أثر من آثار المعاملة من المعلم.

حدثنَي الأمير عبد القادر بن الأمير علي الجزائري – رحمهما الله – بدمشق، قال: كانت لنا بنت في الخامسة من عمرها، فقدَمناها إلى مدرسة من نوع رياض الأطفال بمدينة ((بروسة)) من الأناضول (وكانوا مقيمين بها في الحرب العالمية الأولى). قال: فكانت دايتها لا تذهب بها إلاّ في حالة من الحرد والصراخ تخشى معها على حياتها، وكانت الداية تذهب إلى المدرسة بها وتجيء مرَات في اليوم، قال: وما هي إلا أيام حتى جذبتها المعلمة بلطف مدخلها إلى نفسها، فأصبحت تفعل حين تريدها الداية على الرواح أكثر مما كانت تفعل حين تريدها على الغدو من البكاء والإعوال وزاد بها الحال حتى اضطرَت المعلمة إلى اصطحابها معها إلى بيتها فلا تأتينا بها إلا نائمة فإذا أفاقت أنكرت أمها وفراشها وذعرت حتى لنضطر أحيانا" إلى إرجاعها إلى المعلمة ليلا. قال: وكان من أثر تلك المعاملة أن حذقت البنت كل ما لقنته في الروضة، وأنبني مستقبلها عل ماض متين.

ليحذر المعلَمون الكرام من سلوك تلك الطريقة العتيقة التي كانت شائعة بين معلَمي القرآن، وهي أخذ الأطفال بالقسوة والترهيب في حفظ القرآن، فإن تلك الطريقة هي التي أفسدت هذا الجيل وغرست فيه رذائل مهلكة. إن القسوة والإرهاب والعنف تحمل الأطفال على الكذب والنفاق، وتغرس فيهم الجبن والخوف، وتبغض إليهم القراءة والعلم. وكل ذلك معدود في جنايات المعلَمين الجاهلين بأصول التربية.

وليدرس المعلم ميول الأطفال بالاختلاط بهم، وليكن بينهم كأخ كبير لهم يفيض عليهم عطفه، ويوزع بشاشته ويزرع بينهم نصائحه، ويردَ الناد منهم عن المحجة برفق. إن درس الميول يمكَن المعلم من إصلاح الفاسد منها، ومن غرس أضدادها من الفضائل في نفوسهم. وإن المعلم لا يستطيع أن يربَى تلاميذه الفضائل إلا إذا كان هو فاضلا... ولا يستطيع إصلاحهم إلا إذا كان هو صالحا، لأنهم يأخذون منه بالقدوة أكثر مما يأخذون منه بالتلقين.

أيها المعلَمون الكرام:

إن البيت عند الأمم الحية هي أخت المدرسة. كلتاهما مكمَلة للأخرى، فالتلميذ بينهما يتقلَب بين عاملين من عوامل التثقيف والتهذيب. أما البيت عند أمتَكم فهي ضرة المدرسة، ما تبنيه هذه تهدمه تلك، وما تزرعه هذه تقلعه تلك. لأن قعائد البيوت جاهلات. وقعائد البيوت هَن قواعدها، وويل لبيوتنا من هذه القواعد مادمن جاهلات. ووارحمتاه لكم من هذه الحالة وهذا الموقف، ولا أب يؤيَد ويناصر، ولا أم تعين وتؤازر. ويا بؤس للإسلام والعربية بهذه الدار. ويا عجبا لا ينقضي من بعض الأمهات عندنا، فقد أصابهن - مع جهلهن - من الاستعمار مسَ، فنرى الواحدة منهن تعنى بولدها في ميقات المكتب الفرنسي،

فتحافظ على الوقت بالدقيقة، وترجل شعره، وتغسل أطرافه، وتنظف ثيابه، أما في ميقات المدرسة العربية فترسله أشعث مغبرا مختل الهندسة، متأخرا عن الوقت لأنها سخرته في أغراضها، أو متقَدما عنه لتستريح من شيطنته.

وإذا كانت بيوتنا على ما نرى من فساد في الأخلاق، وجهل بالتربية الصالحة، وإهمال وفوضى، وكانت ناشئتنا في هذا الطور – طور التكوين – تتقلب بين بيوت هذا حالها، وبين مكاتب فرنسية لائكية – إن قدَر لهم الوصول إليها – وهي ذات برنامج استعماري يوجههَم إلى غايات استعمارية، ويبعدهم عن دينهم ولغتهم وقوميتهم، إذا كان الأمر كذلك فانظروا – يرعاكم الله – أي عبء ألقته المقادير على كواهلهم، وأي واجب تؤدَونه لدينكم و لغتكم و أمَتكم، وأي عهد في أعناقكم يجب أن توفوا به لها.

هاهنا توقظ الليالي هاجعها، وهاهنا تجافي الجنوب مضاجعها، وهاهنا تسمو نفوس، تسف نفوس، وهاهنا تنسى المادة الخسيسة حتى كأنها ليست من هذا الوجود...

أي أبنائي المعلَمين:

إن الأطفال مفطورون على غرائز ناقصة يزيدها الإهمال وفقدان التربية الصالحة نقصا" وشناعة. وتعالجها التربية الحكيمة كما تعالج الأمراض. فإذا لم تعالج في الصغر اندملت نفوسهم عليها كما يندمل الجرح على الفساد، وجفَت كما يجِّف العود على عوج، فضعوا أيديكم على تلك النقائص وتعهدوها بالإصلاح والتقويم، بالتشذيب والتعديل.

فمن النقائص اللازمة للصغار: الخوف والغضب والحسد وسرعة التأثر والانفعال وسرعة التصديق بكل شيء وإفشاء كل ما تسمعه آذانهم وتراه أعينهم.

أما الخوف فمنشؤه أوهام تحوكها الأم الجاهلة لصغيرها منذ الرضاعة تستعين بها على إسكات الطفل أو تسكين حدتَه، وهي لا تدري ماذا تجني عليه من تلك الأوهام، ولا أي مرض عضال ابتلته به صغيرا"ليتجرَع غصصه كبيراً. فاجتثوا هذا الغرس الخبيث من نفوسهم بتقوية الإرادة فيهم وبتنمية الحقائق في أذهانهم. وداووا كل نقيصة من تلك النقائص بتقوية ضدها بنفوسها، وببيان أضرارها بالتصوير العملي على قدر ما تحتمله عقولهم. وأنجع الأدوية ترويضهم على الصبر والصدق والتسامح والشجاعة. ربَوهم على الفضائل - وأكررَ القول وأعيده - وقدَموها على العلم. إن الأخلاق العالية هي الأصل، وإن العلم لا يغني عنها، ولا يأتي بها، وكم رأينا من عالم يعظ الناس وينهاهم عن المنكر ثم يخالفهم إلى ما نهاهم عنه. وكم رأينا من طبيب يبيَن مضار الخمر وهو يعاقرها.

ربَوهم على الرجولة وبعد الهمَة، وعلى الشجاعة والصبر، وعلى الإنصاف والإيثار، وعلى البساطة واليسر، وعلى العفة والأمانة، وعلى المروءة والوفاء، وعلى الاستقلال والاعتداد بالنفس وعلى العزة والكرامة، وعلى التحابب والتسامح، وعلى حب الدين والعلم والوطن والوالدين والمعلم.

أفهموهم من الصغر معنى الأسرة وروابطها وواجباته، وتدَرجوا بهم من معنى الأسرة إلى معنى الأمة وأشربوا قلوبهم أنهم فروع من دوحة واحدة ذات خصائص طبيعية ليحافظوا عليها.

كونوا لتلاميذكم قدوة صالحة في الأعمال والأحوال والأقوال. لا يرون منكم إلا الصالح من الأعمال والأحوال، ولا يسمعون منكم إلا الصادق من الأقوال. وإن الكذب في الأحوال أضَر على صاحبه وعلى الأمّة به من الكذب في الأقوال. فالأقوال الكاذبة قد يحترز منها، وأما الأحوال الكاذبة فلا يمكن الاحتراز منها. وقد يقول لكم قائل: إنه رجل صالح، فتحتقرونه لأنه مزكًّ لنفسه ويكون الاحتقار، مانعا من الاغترار. ولكنه يأتيكم من طريق أخرى فيلبس لبوس الصالحين ويتظاهر بأحوالهم من الصمت والسمت فتغترون به، وهو هو بعينه. وكم أهلك هذه الأمّة المتظاهرون بالصلاح، والمتظاهرون بالزعامة ، والمتظاهرون بالأمانة.

أي أبنائي المعلمين:

إنكم جنود الإصلاح، فأصلحوا نفوسكم وداووها من داء الأنانية والغرور وتلاقوا على الحرفة الجامعة بالأخوة والتعاون، والتساند والتضامن.

إنكم من جيل فتح آذانه على نغمة متردِّدة كثر لوكها حتى أصبحت دعوى كل مدّع، وشعوذة كل مشعوذ, وهي خدمة الأمة وخدمة الوطن. وإن أشرف خدمة يقدِّمها العاملون المخلصون لأمّتهم ولوطنهم هي التعليم والتربية الصالحة، فهما سلّم الحياة وإكسير السعادة.

إن أستاذ العاملين الأكبر هو الاستعمار نفسه .يدلّهم بفضائحه البادية، وأعماله الباغية العادية، على طريقة العمل .فإن أردتم أن تعرفوا الطريقة المثلى لخدمة أمتكم، وتتبيَنوا الطريق القاصد، فانظروا إلى الاستعمار، واعرفوا الطرق التي سلكها لقتل أمتكم فاسلكوا ضدّها لإحيائها. وادرسوا الوسائل التي تذرع بها لاستعباد أمتكم فاستخرجوا منها وسائل تحريرها.

أنتم معاقد الأمل في إصلاح هذه الأمَّة، وإن الوطن لا يعلَق رجاءه على الأميِّين الذين يريدون أن يصلحوا فيفسدون، ولا على هذا الغثاء من الشباب الجاهل المتسكع الذي يعيش بلا علم ولا عقل ولا تفكير، والذي يغط في النوم ما يغط، فإذا أفاق على صيحة تمسك بصداها وكررًها كما تكررً الببغاء.

كان الله لكم ، وجعلكم عند حسن ظننا بكم ، وأجرى على أيدكم الفتح والنجاح.

آفلو، رجب عام 1361ه.

إلى أبنائنا المعلمين الأحرار[1]

أيها الأبناء البررة!

وصفناكم – في العدد الخاص بالمدارس – بما أنتم أهله، وذكرناكم-ذكركم الله في الملإ الأعلى- بالخير والجميل،وأرسلنا إليكم تلك التحية الأبوية الخالصة صادرةً عن قلب يكن لكم الحب والتقدير والشفقة، راجين أن يكون رجع التحية منكم واجباً يؤدى على أكمل وجوهه، وعملاً يحقق على أحسن حالاته، وغايةً توصَل بأسبابها من أقرب الطرق، وبأنفع الوسائل، لا كلاماً يذهب مع الريح، ولا قشوراً من الأعمال تضيع الوقت، وتبعد الغاية، ولا أنيناً من الشكوى والتسخط يذهب بالصبر ويوهن العزيمة، وهما حلية الأبطال.

ها أنتم هؤلاء تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد، فاحرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان، وها أنتم هؤلاء خلفتم مرابطة الثغور من سلفكم الذين حموا الدين والدنيا، ووقفوا أنفسهم لإحدى خطتين : الدفاع المجيد، أو موت الشهيد، فاحذروا أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم حراستها واحد منكم، فيجلب العار والهزيمة لجميعكم، واعلموا أنكم عاملون، فمسئولون عن أعمالكم، فمجزيُّون عنها من الله ومن الأمة ومن التاريخ ومن الجيل الذي تقومون على تربيته كيلاً بكيل، و وزناً بوزن.

[1] - نشرت في العدد 94 من جريدة البصائر، 7 نوفمبر سنة 1949.

إننا – يا أبنائي – كنا أوّل من نام، وآخر من استيقظ، فمن الحزم أن لا نقطع الوقت في العتاب والملام، والحرب بالكلام، فإن ذلك إطالة للمرض، وزيادة في البلاء على المريض؛ ومن الحزم أن نتحاسب على الدقائق، إذا تحاسب غيرنا على الساعات، وعلى الأيام إذا تحاسب غيرنا على الأعوام.

إنّ وراءَنا من الزمن سائقاً عنيفاً، وإنّ معنا من العصر وروحه زاجراً مخيفاً، وإن أمامنا سبلاً وعرة، وصراطاً أرق من الشعرة، وإنّ عن أيماننا وعن شمائلنا عوائقَ من الدهر، ومعوّقين من البشر، وإنّ في طيّي الغيوب، من القدر المحجوب، بوائق في أكمامها لم تفتق، وإنْ أدري أقريب أم بعيد ما وعد الله الظالمين، ولكنّني أدري أنّ العاقبة للمتقين، وإننا لا نغلب العوائق، ولا نتقي البوائق، إلا بإيماننا بالله، ثم بديننا، ثم بلغتنا، ثم بأنفسنا ثم بالحق الذي جعله الله ميزاناً للكون، وقيوماً على الكائنات، ترجع إليه صاغرة، وتقف عنده ذاخرة.

إن التقصير في الواجب يعدّ جريمة من جميع الناس، ولكنه في حقنا يضاعف مرتين، فيعدّ جريمتين، لأن المقصر من غيرنا لا يعدم جابراً أو عاذراً، فقد يغطي على تقصيره عمل قومه أو حكومته، وقد يقوم له بالعذر حاله الجاري على كمال مقنع، أما نحن فحالنا حال اليتيم الضائع الجائع، إذا لم يسعَ لنفسه مات. فإذا قصرنا في العمل لأنفسنا ولما ينفع أمتنا ويرفعها، فمن ذا يعمل لها؟ الحكومة؟ وقد رأينا من معاملتها لنا أنها تمنع الماعون، وتداوي الحمى بالطاعون، وتبارز الإسلام بالمنكرات، وتجاهر العربية بالعدوان، فمن ضل منا مع هذا فقد ضل على علم، ومن هلك فإنما هلك عن بينة.

و إن لما يبوء به المقصرون من الندامة لمرارة، تجتمع في العقبى مع الخسارة، فيكون منها حال من الحسرة يحلو معه بخع النفوس، و إتلاف المهج، وتلك هي الحالة التي نعيذ أنفسنا ونعيذهم بالله من تسبيب أسبابها، وتقريب وسائلها، وقد نهى ديننا الإسلامي عن التقصير في الواجبات، ونعى التفريط في الحقوق، وبيّن آثاره وعواقبه، وحضّ على الأعمال في مواقيتها، وقبح الكسل والتواكل والإضاعة، فشرع لنا بذلك كله من شرائع الحزم والقوة وضبط الوقت والنفس ما لم يشرعه قانون، ولم تأت به عقلية، وما أخذنا بذلك إلا ليأخذ بحُجَزِنا عن التهور في الكسل والبطالة، و يقينا تجرّع مرارة الندم، وحرارة الحسرة.

قصر آباؤنا وأجدادنا في واجبات اقتضاها زمانهم، وفرطوا في حقوق تقاضاها منهم مكانهم، بعد ما لاحت لهم النذر، وقامت عليهم الحجج، ودمغتهم البينات، فغالطوا في الحقائق، وكذبوا بالنذر، وموهوا بالزيف، وغشوا أنفسهم بالأماني والأحلام، وغشونا بالضلالات والأوهام؛ حتى مات من استقظيت شواعُره منهم بحسرات الندم، ومات الغافلون منهم كما يموت الغفل من النعم، فلا حسرةُ أولئك أجدَت علينا شيئاً، ولا غفلة هؤلاء أفادتنا نقيراً، و إنما أضاف تفريطهم المخجل واجباتهم إلى واجباتنا، فأصبحت حملاً ثقيلاً، هو هذا الذي ننوء به وينوء بنا، هو هذه الأعباء المركومة التي نحاول النهوض بها فيقيمنا الإيمان والأمل، وتقعدنا الكثرة والثقل، و إن من الظلم تكليف جيل بواجبات أجيال، و إن من الجور أن يحمل القرن الأخير أوزار القرون الماضية، ولو أنهم - سامحهم الله- قاموا بواجباتهم أو ببعضها، لخففوا عنا الكثير، وهوّنوا علينا العسير، كما خففنا نحن وهوّنا على الجيل الآتي؛ ولو أنهم غرسوا الشجرة، لقربّوا منا جني الثمرة.

هذه هي حالتنا- يا أبنائي- نهدم ونرفع الأنقاض ونبني ونعمر في آن واحد، ونؤدي فريضة الوقت ونقضي الفوائت على غيرنا في آن واحد، ثم نؤدّي الكفارات

على ذنوب لم نجترحها... كل ذلك مع محاربة من الجار، ومشاغبة من الشريك في الدار، ومع وشل من المال لا يتمّ به العمل، ومثبطات من سوء الحال يتضاءل معها – لولا الإيمان- الأمل، وإنها لحالة لا يثبت معها إلا المؤمنون الصابرون الصادقون المخلصون المحتسبون، المؤيَّدون بروح من الله، ونحن وأنتم كل ذلك، إن شاء الله.

* * *

ها أنتم هؤلاء تربعتم من مدارسكم عروش ممالك، رعاياها أبناء الأمة وأفلاذ أكبادها، تديرون نفوسهم على الدين وحقائقه، وألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه، وتسكبون في آذانهم نغمات العربية، وفي أذهانهم سر العربية، وتدبرون أرواحهم بالفضيلة والخلق المتين، وتروضونهم على الاستعداد للحياة الشريفة بعد أن تجتثوا من نفوسهم بقايا آثار المنزل الجاهل، والأب الغافل، وتقودونهم بزمام التربية إلى مواقع العبر من تاريخهم، ومواطن القدوة الصالحة من سلفهم، ومنابت العزّ والمجد من مآثر أجدادهم الأولين، فقفوا عند هذه الحدود، واجعلوها مقدّمة على البرنامج الآلي في العمل والاعتبار، وفي السبر والاختيار، واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه، وهي:إن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤتَ في خيبته في الحياة من نقص العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق.

ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، طُلَعَة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قويّ الإدراك للمعايب

والكمالات، فإذا زينتم له الصدق، فكونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر، فكونوا الصابرين، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلاميذكم من غير أن يكون منقوشاً في نفوسكم فهو زائل، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلاً في أرواحكم فهو – لا محالة- ناصل حائل، وأن كل سحر تنفثونه لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة.

أوصيكم بتقوى الله فهي العدّة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي مهبط الروح والطمأنينة، وهي متنزل الصبر والسكينة، وهي مبعث القوة واليقين، وهي معراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن.

وأوصيكم بالرفق والأناة في أموركم كلها، وبخفض الجناح للناس كلهم، وباتقاء مواطن الشبه، واجتناب مصارع الفضيلة، وما أكثرها في وطنكم هذا؛ وبإجرار الألسنة عن مراتع الغيبة والنميمة، وفطمها عن مراضع اللغو واللجاج؛ فهي – لعمري- مفتاح باب الشر، وثقاب نار العداوة والبغضاء.

وأوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نجم بالشر ناجمها، وهجم – ليفتك بالخير والعلم- هاجمها، وسجم على الوكن بالملح الأجاج ساجمها، إنّ هذه الأحزاب، كالميزاب، جمع الماء كدراً، وفرّقه هدراً، فلا الزُّلال جمع، ولا الأرض نفع.

وأوصيكم بحسن العشرة مع بعضكم إذا اجتمعتم، وبحفظ العهد والغيب ببعضكم إذا افترقتم، إن العامة التي ائتمنتكم على تربية أبنائها تنظر إلى أعمالكم بالمرآة المكبرة، فالصغيرة من أعمالكم تعدها كبيرة، والخافتة من أقوالكم تسمعها جهيرة، فاحذروا ثم احذروا...

أي أبنائي! إن هذا القلب الذي أحمله يحمل من الشفقة عليكم، والرحمة بكم، والاهتمام بشؤونكم، ما تنبت منه الحبال، وتنوء بحمله الجبال، وهو يرثي لحالكم من الغربة وإلحاح الأزمات ويودّ بقطع وتينة لو أزيحت عللكم، ورقع بالسداد خللكم، ولكنكم جنود، ومتى طمع الجندي في رفهنية العيش؟ وأسود، ومتى عاش الأسد على التدليل؟ وهو يشعر أن التدليل تذليل.

إنكم- يا أبنائي- رجالُ حركة، فلا تشينوها بالسكون، وأبطال معركة، فلا يكنْ منكم إلى الهوينا ركون.

وإنكم رجال جمعية العلماء، فشرفوا جمعية العلماء.

تعليم البنت

وغايـة الجمـع المفيـد في الحـضر ... تجمعني بك خـلال وسيـــر
مـا اجتمعـت إلا ثـوى الخـير وقـر ... ولـيس فيهـا تـاجر ومـا تجـر
ولـيس منهـا مـا بغـى البـاغي وجـر ... ومـا تقـارض الثنـا فينـا يقـر
إن فـضول القـول جـزء مـن سـقر ... فـلا أقـول في أخـي ليـث خطـر
ولا يقـــول إنـــني غيـــث قطـــر ... وإنمـــا هـــي عظـــات وعـــبر
عرفـت مبـدأها فهـل تـم الخـير ... وبيننـــا أســـباب نـــصح تَّـــدكر
كتمانهـــا غـــبن وغـــش و ضرر ... لا تنس(حوا) إنها أخـت الـذكر
تحمـل مـا يحمـل مـن خـير وشر ... تثمـر مـا يثمـر مـن حلـو ومـر
وكـيفما تكونـت كـان الثمـر ... وكـل مـا تـضعه فيهـا اسـتقر
فكيـف يـرضى عاقـل أن تـستمر ... مزيـدة عـلى الحـواشي والطـرر
تـزرع في الـنشء أفـانين الخـور ... ترضـعه أخلاقهـا مـع الـدرر
وإنهـا إن أهملـت كـان الخطـر ... كان البلا كان الفنا كان الـضرر
وإنهـــا إن علمـــت كانـــت وزر ... أولا فـوزر جالـب سـوء الأثـر
ومنعهـا مـن الكتـاب والنظـر ... لم تـــأت فيـــه آيـــة ولا خـــبر
والفضليات مـن نـسا صـدر غـبر ... لهـــن في العرفـــان ورد وصـــدر

وانظر هداك الله ما ذا ينتظر ... من أمة قد شل نصفها الخدر
وانظر فقد يهديك للخير النظر ... وخذ من الدهر تجارب العبر
هل أمة من الجماهير الكبر ... فيما مضى من القرون و حضر
خطت من المجد ومن حسن السير ... تاريخها إلا بأنثى و ذكر؟
ومن يقل في علمها غي وشر ... فقل له هي مع الجهل أشر
ولا يكون الصفو إلا عن كدر ... وإن تيار الزمان المنحدر
لجارف كل بناء مشمخر ... فاحذر وسابق فعسى يجدي الحذر
واعلم بأن المنكرات والغير ... تدست للغرفات والحجر
مصر والشام ومن شط هجر
وأنها قارئة ولا مفر ... إن لم يكن عنك فعن قوم أخر
واذكر ففي الذكرى إلى العقل ممر ... من قال قدما (بيدي ثم انتحر)
حطها بعلم الدين والخلق الأبر ... صبية تأمن بوائق الضرر
وأعلم بأن نشأنا إذا كبر ... عاف الزواج بابنة العم الأغبر
يهجرها بعد غد فيمن هجر ... لأنها في رأيه مثل الحجر
ويصطفي قرينة من الغجر ... لأنها قارئة مثل البشر
خذها إليك درة من الدرر ... من صاحب ران الأمور وخبر
صميمة في المنجبات من مضر ... نسبتها البدو وسكناها الحضر

3 – البشير الإبراهيمي ونهج ابن باديس

خطبة الأستاذ الإبراهيمي التي ختم بها حفلة التكريم للأستاذ ابن باديس في كلية الشعب[1]

أيها الملأ الكرام:

ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس, ولقد مضى بجلاله وروعته ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة ولا اختلجت في نعته شفتان بحرف،لا زاهدا فيه ولا عدم عرفان لحقه ولا غبنا لحقيقته، كيوم شوقي الذي قال فيه:

غبنت حقيقته وفات جمالها ❋ باع الخيال العبقري الملهم

وإنهما هو كلام الله وبيت الله عقدا الألسنة بجلالها وحبسا النفوس على جمالهما، فجاء اليوم وجاءت كلية الشعب يقضيان من ذلك حقا غير مغفل.

إن يوم أمس من أيام الأمم، ولا أيام الأمم غير لوامع في تاريخها، ويد صناع في بناء مجدها، وصلة لا تنضب بتكوين أسباب بقائها وعظمتها، كما أنها شهود ناطقة بما في الأمة من معاني العز والعظمة.

[1] - "ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصطد أقلام الكاتبين من ألفاظها إلا قليلا مشوشا لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فالح جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها ويصف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصا على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقق رغبتهم بكتابة ما يراه القارئ منشورا بعد هذا".

لسنا نعني بأيام الأمم، هذه الأيام المتعاقبة التي يجمعها نسق الأسبوع وتعرف بالإعلام وتمتاز بمراتبها العددية في الشهر، فقد تمر الآلاف منها على الأمم من غير أن تجمعهم جمعها على مأثرة تكسبهم عزا ومن غير أن توحدهم آحادها على عمل يرفع لهم ذكرا. ثم لا تكون زيادتها إلا نقصا في أعمار الأفراد و إبلاء للجديد من حياة المجموع.

و إنما نعني هذه الأيام التي لمع في الدهور، وشيات في غرر العصور، هذه الأيام التي تعرف بما يقع فيها من الأعمال، لا بما يوضع لها من الإعلام، وتذكر بآثارها في الأمم، لا بمواقعها من الأسبوع أو الشهر، هذه الأيام التي تطول وتتسع حتى تستغرق القرون وتستوعب الأجيال على حين يبقى غيرها محدودا بمطلع الشمس ومغربها.

إن أحدا من المسلمين لا يجهل يوم بدر ولا يجهل – و إن كان عاميا- أثره في ظهور التوحيد على الشرك، ولكن قليلا منهم من يعرف أن اسمه يوم كذا وأن نسبته من الشهر كذا، وقد غربت شمس يوم بدر منذ مئات الآلاف من الأيام وجر عليه الفلك أذيال عشرات الآلاف من شركائه في الاسم، فلم يعف له رسما ولم يطمس له أثرا. ومات معناه الزمني المحدود ولكن معناه التاريخي النفسي لم يمت بل هو باق ما بقي الإسلام، طويل العمر ما طال، واسع المعنى ما اتسع.ولقد علمتنا لغة العرب فنا في مصاص الأشياء فقهنا منه أن من النساء عقائل، وأن في الأموال كرائم، وأن في الجواهر فرائد، وان في النجوم دراري ، وأن في الشعر عيونا، وان في الذخائر إعلاقا إلى آخر ما يجري على هذا النسق، حتى إذا وصلنا إلى الأيام، وهذا أشد- من كل شيء- ارتباطا – بشؤوننا- ، لم نجد لمصاصها في اللغة غلا أوصافا يتعاورها اشتراك الموصوفات ويتجاذبها اختلاف الاعتبارات، قم يذيلها شيوع الاتصاف وتبذل الاستعمال حتى تقصر عن التأدية، خصوصا حين

يفيض الوصف التاريخي على الوصف اللغوي،وان من المعجزات القران تسمية ليوم بدر بيوم الفرقان.

ولكن يسلينا أن ما قصرت فيه اللغة فلم تأت فيه بوصف يليق بجمالها وجلال هذه الأيام، قد وفى به التاريخ فلم نحفظ من أيام الأمم الكثيرة إلا أياما قليلة فكان ذلك منه تعبيرا فصيحا على أن هذه الأيام هي الخوالد من بين الأيام البائدة. وهي الغرر في الكثرة البهيمة، وهي المشهودات وغيرها غفل. وكان ذلك منه وضعا تاريخيا يخصص الأوضاع اللغوية. فإذا قلنا هذا يوم خالد ويوم أخر ويوم مشهود اطمأنت النفوس غلى تمام التأدية بمراعاة الوضعين التاريخي واللغوي.

أيها الإخوان:

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم العز المحجل في تاريخ الجزائر الحديث ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم العز في قرون من تاريخ الإسلام.

هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية، ونؤرخ به لمبدإ ازدهارها و إثمارها، ونموها وبدارها[1].

هذا هو اليوم الذي التفت فيه الأمة حول دينها ولغتها فأثبتت أنها امة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للعاجم، وتأبى لها عربيتها أن تدين فيها للأعاجم.

1- الشهاب" الجزء الرابع، المجلد الرابع عشر،جوان-جويلية 1938، ص 277

هذا هو اليوم الذي تعلن فيه هذه الأمة أنابتها على ربها، وتكفيرها عن ذنبها ورجوعها إلى الله رجوع عبد أوبقته جرائره، وافتضحت سرائره، وانقطعت أواصره، وعز مغيثه وناصره، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فرجع على الطريق التي منها هرب. فإن هروب هذه الأمة من الله هو تفلتها من كتابه وبعدها عن هدايته، والتماسها الوصول إليه على غير طريقه، فضلت وتاهت قرونا وها هي ذي تفئ إلى الله على طريق كتابه وسنة محمد وأصحابه وعسى هادي الحائرين أن يعود عليها بعوائد بره و إحسانه.

هذا هو اليوم الذي يختم فيه إمام سلفي تفسير كتاب الله تفسيرا سلفيا ليرجع المسلمون إلى فهمه فهما سلفيا، في وقت طغت فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفت فيه العاطفة بالعقل، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره، وفي امة تقطعت صلاتها بالسلف وضعف تقديرها للقران، فأصبح ملهاة أذان ومشغلة لسان، وأصبح حفاظها يقرأونه للتبرك أو يتجرون به في المقابر، وعوامها ينزلونه منزلة البصل والكراث فيستشفون بحروفه من أمراض سببتها الحرارة أو جلبتها البرودة، وعلماؤها يدرسونه بلغة المصطلحات العرفية، ويتناولونه بأذهان حشيت بالأفكار الطائفية، والتعصبات المذهبية، والمحامل الجدلية، والتوجيهات اللفظية، وبكتب ملئت بالإسرائيليات المصنوعة والآثار الموضوعة والنظريات، والطلبة - وهم صرعى هذه الفتن- يتلقونه بالسنة جافت البيان العربي وصرفتها العجمة في منهاج غير منهاج العرب، ففسد الذوق واختل التصور- وبأفكار غطى عليها الجمود وسد عليها منافذ التفكير- و بنفوس ركبها الملل و السأم، فرضيت بسماع ما لا يفهم و تلقي ما لا يعقل، و هان الزمان في حسابها فأصبحت تنفق منه جزافا، و اختل تقدير الأشياء عندها فأصبح كل مقروء علما و كل قارئ علما.

وأشهد، لقد كنت ضيفا بتونس منذ سبع عشرة سنة، فقيل لي عن عالم من مشائخ جامع الزيتونة ومن أبعدهم صيتا في عالم التدريس : إنه يقرئ التفسير. فشهدت يوما درسه لأكون فكرة عن دراسة التفسير في ذلك المعهد الجليل. وكنت معنيا بهذا البحث وجلست إليه أكثر من نصف ساعة، فوالذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدرس ولا لمحت أمارة ولا إشارة تدل على إن الدرس في التفسير. وما كان كل الذي سمعت إلا حكاية لجدل عنيف وتمثيلا لمعركة لفظية مستعرة بين السيد الجرجاني وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسر من المفسرين الاصطلاحيين، ثم انقضت الحصة وقام الطلبة المساكين يتعثرون، تبدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة، وقمت أنا مستقيما أن هذه الطريقة في التفسير هي أكبر الحجب التي حجبت المسلمين عن فهم كتاب الله ثم زهدتهم فيه وصدتهم عن موارده.

أيها الإخوان:

إن الأمة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرأون المدهش المعجب، ويرى الناس آثارها في العلم والتشريع والأدب والحكمة فيرون الطراز العالي البارع، فيستوي المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمة هذه آثارها لهي الأمة حق الأمة، تلك الأمة ما كانت أمة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقرآن.

فالقرآن هو الذي رباها وأدّبها وزكى منها النفوس، وصفى القرائح، وأذكى الفطن، وجلا المواهب، وأرهف العزائم، و هذب الأفكار وأعلى الهمم، واستفز الشواعر، واستثار القوى، وصقل الملكات، وقوى الإرادات، ومكن للخير في النفوس، وغرس الإيمان في الأفئدة، وملأ القلوب بالرحمة، وحفز الأيدي للعمل

النافع والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهرها منه تطهيرا وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميرا.

أيها الإخوة:

قارنوا بين هذه الأمة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيدا جدا، ووجه الشبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة. ثم التمسوا السبب تجدوه قريبا منكم، وما هو إلا هذا القرآن أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم على أخلاقه، فعلمها الإيمان والأمان والإحسان واتخاذه الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة الله في أمثالهم . فمن لي بمن يرسلها في مسلمي الدعوى والعصيبة صيحة داوية: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟

أيها الإخوان :

إن هذه البسيطة لم تشهد منذ دحاها الله صلاحا عاما وسعادة شاملة كالذي جاءها به القرآن يوم أنزله الله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فأنذر به العالمين ونشره ورثته الأمناء من بعده نقي الجوهر ناصع الحجة.

وإن هذا العالم الإنساني لم يشهد منذ برأه الله على ظهرها إفسادا عاما وشرا مستحكما وطاعونا أخلاقيا جارما إلا مرتين، على كثرة ما شهد من الطواعين الجسمانية.

أما إحداهما فكانت قبل الإسلام يوم كان العالم الإنساني كله فريسة للأثرة والاستعباد والاستبداد والفساد والإفساد، ويوم كان بحرا متلاطم الأمواج بالرذائل ويوم كان العقل عبدا للهوى والفكر عبدا للوهم، والحقيقة أمة للخرافة والفطرة رهينة الاعتلال والاختلال، ويوم كان هذا العلم كله خاضعا لشهوات مضطرمة وحيوانية عارمة ووثنية متغلغلة.

ولكن الله – جلت قدرته – تداركه، وبه رمق، بالإسلام دين السلام وكتابه القرآن كتاب العدل والإحسان وبرسوله الأمين يحمل منه للعالم المثخن الدواء الشافي، ويمسح على مواقع الألم منه بالكف الكافي. فما هي إلا فترة حتى أصبح العلم يمرح في السعادة ويسبح في النعيم وينعم بالأخوة والتسامح ينقلب في أعطاف العدل.

وأما الثانية فهي في عهدكم هذا.

ولو أنكم تستشهدون التاريخ: أية المرتين كانت أشر وأدهى وأمر، لقال لكم غير متجانف لأثم: إن شر المرتين آخرتهما. ولساق لكم من الحجج ما لا تستطيعون له دفعا. فإن الشر الأول كان من بعض دواعيه الجهل، أما هذا الشر فكل دواعيه العلم. وقد كان الشر يعرض على الناس باسمه وفي ثوبه الحقيقي فأصبح يعرض عليهم باسم الخير وفي ثوب الخير. وقد كان العالم متباعد الأجزاء تقليل من بواعث الشر، فأصبح العالم مزدحما حتى لا يكاد يلتحم. ومن ازدحامه والتحامه نشأت معضلته الاجتماعية الكبرى وهي مشكلة الأغنياء والفقراء التي لم يفلح في حلها علم العلماء ولا حكمة الحكماء ولا قوة الأقوياء ولا دهاء الدهاة، والتي تفاقم خطبها واضطرام لهيبها حتى أصبح بنو آدم

المتأخرون في نسبه فريقين مضطغنين يتربص كل فريق بأخيه دائرة السوء. ويا ويل هذه الأرض إذا انفجرت الأحقاد بين أبنائها.

وقد عرفنا التاريخ أن أصل البلاء بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة. وكان مما يهون تلك العصبيات أنها محدودة وأنها تعالج بعصبيات أخرى فيخفف ضررها وتتلاشى قوتها. ولكن مشكلة اليوم أن تلك العصبيات التي كانت تنفع حينا وتضر أحيانا ذابت كلها في عصبيتين جامحتين كلتاهما ضرر وكلتاهما شر.

إن رحمة الأرض آتية من السماء، وقد جاءت أديان السماء فعلمت الفقير كيف يرضى ويصبر، وعلمت الغني كيف يحسن ويرحم، فلماذا لا يرجع بنو الأرض إلى حكم السماء ورحمته؟ ولماذا لا يلتمسون مثل الإحسان الكاملة في القرآن؟

أيها الإخوان:

هذا داء العالم البشري فأين دواؤه؟ وهذا مرضه العضال فأين طبيبه؟ وهل يتداركه الله بلطفه فيهدي البشر إلى إتباع ما جاء به القرآن من تسامح وتعاون على الخير؟

فيا أيها المشفقون على العالم الإنساني أن يأكل بعضه بعضا، انصحوه بالرجوع إلى الإسلام وكتابه يجد فيهما ظلال السلم وبرد الرحمة وعز القناعة والشرف والتقوى ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام.

ويا أيها المسلمون، أنتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون، وأنتم الحكم المرضي في هذه المشكلات ولكنكم غائبون. ولو كنتم حاضرين حضور

سلفكم لمشاهد العالم ومنازعاته العامّة لوقفتم - كما وقفوا - بعقائدهم وسطا بين التناهي والتقصير، وبزكاتهم المرضية حكما بين الغني والفقير، وبرحمة الإسلام سدا بين الأجير، وإذا لزرعتم في طول العالم وعرضه الخير والرحمة، وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمة. وإذا لرفعتم عن العلم هذه الأسار والأغلال و فزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق نقطة الإشكال.

إن العالم في عذاب، وعندكم كنز الرحمة، وإن العالم في احتراب، وعندكم منبع السلم، وإن العلم في غمة من الشك، وعندكم مشرق اليقين. فهل يجمل بكم أن تعطلوه فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا؟

طبقوا على أنفسكم جزئية واحدة من إصلاحاته كالزكاة، واظهروا بها للعلم على صورتها العلمية الكاملة، وحقيقتها العلمية العليا. ثم قفوا بين الصفين، لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين. وأشربوا نفوسهم ما أشربت نفوسكم من معنى قوله تعالى: " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في حياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون". ومن معنى قوله تعالى: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون"و أنا الضمين لكم أنهما يتحاجزان ويتسامحان في طرفة عين. إن دينكم دين إصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس.

أحيوا قرآنكم تحيوا به، حققوه يتحقق وجودكم به. أفيضوا من أسراره على سرائركم ومن آدابه على نفوسكم ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء.

"إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون"

هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو الظلم أو بالأنانية أو بالقسوة. وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مرددا في الجامع الأخضر خمسا وعشرين سنة آخرها أمس.

أيها الإخوان:

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو تكريم أخينا الأستاذ عبد الحميد ابن باديس وتمجيد أعماله في خدمة الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس المشهود، وأو شكنا أن نضيع واجبه وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان، ولعل الأقلام تجفوه تبعا لذلك فلا يجري في وصفه قلم.

وقد توزعتني الخواطر حين قمت: أأسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهلا له؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس لي الكلام قياده، كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل، والجفاء ليومنا الأغر المحجل. و إن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت قي حق أخ اعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة مثل هذه، محدودة الساعات، بتمجيد رجل طوقت هذا الوطن منه.

فإن قامت ببعض ما يجب للقرآن وليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته.

مقامة في رثاء الإمام ابن باديس

"مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة" [1]

تقديم محمد الفسيري

الوفاء قليلٌ في البشر، وأوفى الأوفياء من يفي للأموات، لأن النسيان غالباً ما يباعد بين الأحياء وبينهم، فيغمطون حقوقهم، ويجحدون فضائلهم.

وما رأينا في حياتنا رفيقين جمع بينهما العلمُ والعمل في الحياة، وجمع بينهما الوفاء حين استأثر الموت بأحدهما، مثلما رأينا إمامي النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، رحمَ الله الميت، ومدّ في عمر الحي حتى يحقق للجزائر أمنيتها.

من أعلى ما امتاز به أستاذنا الجليل، ورئيسنا الأكبر، محمد البشير الإبراهيمي من شرف الخلال(نكران الذات) فهو لا يزال يعمل الأعمال التي تعجز عنها الجماعات وتنوءُ بها العصَب، وهو مع ذلك لا ينسب الفضل إلا لإخوانه ورفقائه الأموات والأحياء.

يصرّح بذلك في خطبه الدينية، ومحاضراته الجامعة، ويقول: إن كل فضل في هذه الحركة العلمية النامية يرجع إلى جمعية العلماء، وإنه لولا جمعية العلماء

[1]- كتبت في أفريل 1941 ونشرت في العدد 76 من جريدة البصائر، 18 أفريل سنة 1949.

لما كان هو، ونحن أبناؤه نشهد، و إخوانه يشهدون أنه لولا علمه ولسانه وصبره وتأثيره الذي يشبه السحر، لما كانت جمعية العلماء، ولولا براعته في التصريف والتسيير لما سار لجمعية العلماء شراع هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن.

* * *

مات ابُن باديس، في حين كان رفيقه، في الجهاد وقسيمه في العلم والعمل محمد البشير الإبراهيمي منفياً في قرية " آفلو" من الجنوب الوهراني، بحيث لم يحضر دفنه، ولم يؤبّنه بكلمة، فعوّض ذلك برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بثّ فيها حزنه للمصيبة، وصوّر فيها آثارها، ولم تنسه الفجيعة ما يجب من النصائح بالثبات، واستمرار السير، فجاءت رسائلَ من ذلك الطراز الساحر الذي لا يحسنه إلا الإبراهيمي، ولا أدري أيحتفظ إخواني بتلك الرسائل الفنية أم ضيّعوها؟!

ولما مضت على موت الأستاذ سنة، ورفيقه لا يزال في المنفى، أرسل الرئيس الجليل من منفاه هذه المقامة إلى مقيمي الذكرى الأولى لابن باديس وتلاها في حفل مختصر كاتب هذه الكلمة، فأبكت العيون، وجدّدت الأسى.

رغبنا إلى أستاذنا أن ننشر هذه المقامة في ذكرى هذه السنة، إذْ كان عاجزاً عن كتابة كلمة خاصة بها لمرضه واشتغاله، فأذن -أبقاه الله – بعد امتناع لأن أستاذنا – حفظه الله – لا يرى السجعَ معّبراً عن النوازع العميقة، و إن كان هو، إمامَ العصر بلا منازع في هذه الطريقة الأندلسية البديعة التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصنعة، وملك أزمة اللغة والغريب.... وحلّت في الأخير رغبتنا منه محل القبول، حرصاً على هذه المقامة أن تضيع إن لم تسجّل، وكم من نفائس مثل هذه المقامة، وكم من رسائل، وكم من تحف فنية من أدب الهزل

والنكتة، وكم من ملاحم شعرية، بلغت الآلاف من الأبيات! ما زالت مطمورة في أوراق الأستاذ، وفي حافظته العجيبة، وإذا لم يحرص أمثالنا من تلامذة الأستاذ على استخراجها ونشرها ضاعت، وخسر الأدب والعلم خسارة لا تعوّض، وها هي ذي المقامة الباديسية، وننَّبه إلى أن الأستاذ حذف منها كثيراً مما لا تسمح الظروف بنشره.

تلمسان **محمد الغسيري**

"المقامة"

سلام* يتنفس عنه الأقاح بإزهاره وإيراقه، ويتبسم عنه الصباح بنوره وإشراقه.

وثناءٌ يتوهج به من عنبر الشجر عبيره، ويتبلج به بدر التمام، على الركب الخابط في الظلام، منيره.

وصلوات من الله طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان، وتحيات زكيات تتنزل بها – من الملإ الأعلى- الملائكة والروح، ونفحات ذكيات تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدّق برهانُ الحق قولها الشارحَ بفعلها المشروح.

وسلام من أصحاب اليمين، و غيوث من صوادق الوعود، لا صوادق الرعود، لا تخلف ولا تمين، وسحائب من الرحمات تنهل سواكبها، وكتائب من المبشرات تزجى مواكبها.

*- المقامة

وسوافح من العبرات تنحلّ عزاليها، ولوافح من الزفرات تسابق أواخرها أواليها.

على الجدث الذي التأمت حافتاه على العلم الجم والفضل العد، ووراى ترابه جواهر الحجا والذكاء العزم والجد، وطوَى البحر الزخار في عدة أشبار، فأوقف ما لا حدّ له عند حد، واستأثر بالفضائل الغزْر، والمساعي الغرّ، والخلال الزهر، فلم يكن له في الأجداث ند، وأصبح من بينها المفردَ العلم كما كان صاحبه في الرجال العلمَ الفرد.

وسلام على مشاهدَ كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت ظلال رعايته وتعهّده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلومه ومواعظه معمورة، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر، ونوره الزاهر، مغمورة، وعلى جمعيات كان شملها بوجوده مجموعاً، وكان صوته الجهير، كصوت الحق الشهير، مدّوياً في جنباتها مسموعاً.

مشاهد كان يراوحها للخير والنفع، وكانت آفاقها بأنواره مسفرة.

ومعاهد كان حادي زُمَرها إلى العلم، وهادي نُزَّاعها إلى الإحسان والسلم، فأصبحت بعده مقفرة.

ومدارس، وما مدراس، مهدها للعلم والإصلاح مغارس، ونصبها في نحور المبطلين حصوناً ومتارس، وشيّدها للحق والفضيلة مرابطَ ومحارس.

وسلام على شيخه الذي غذّى وربّى، وأجاب داعيَ العلم فيه ولبّى، وآثر في توجيهه خير الإسلام، فقلّد الإسلام منه صارماً عضباَ، وفجّر منه للمسلمين معيناً عذباً، فلئن ضايقته الأيامُ في حدود عمره. فقد أبقت له منه الصيت العريض، والذكر المستفيض، ولئن سلبته الحلية الفانية فقد ألْبستْه من مآثره

حُلل التاريخ الضافية، ولئن أذاقتْه مرارة فقده، فقد متّعه بقلوب أمّة كاملة من بعده، ولئن حرمته لذة ساعات معدودة، فقد أسعدته به سعادةً غير محدودة.

وسلام على إخوان كانوا زينة ناديه، وبشاشةَ واديه، وكانوا عمّار سامره، والطيبَ المتضوع من مجامره، والجوارحَ الماضيةَ في تنفيذ أوامره.

وسلام على أعوان كانوا معه بناة الصرح، وحماة السرح، وكانوا سيوف الحق التي بها يصول، وألسنة الصدق التي بها يقول، أبتْ لهم عزة الإسلام أن يضرَعوا أو يذلّوا، وأبتْ لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلّوا، وأهلك العالمَ زللُ العلماء فتقاسموا بشرف العلم أن لا يزالوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله سبيلاً، وافترق الناس شيعاً فجعلوا محمداً وحزبه قبيلاً.

* * *

ولقد أقول على عادة الشعراء – وما أنا بشاعر- لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخَبال، تُمثِّلهما الخواطر تمثيَل صفاء، وتقيمهما في ذهني تمثالَ وفاء: بكِّرا صاحبي فالنجاح في التبكير، وما على طالب النّجْح بأسبابه من نكير، تنجحا لصاحبكما طِيةً، لا تبلغ إلاّ بشد الرحل وتقريب المطية، فقد خُتِمت -كما بُدئت- الأطوار، بدولة الرحال والأكوار، فادفعا بالمهريّة القود، في نحر الوديقة الصيخود، ولا تخشيا لذْع الهواجر، وإن كنتما في شهريْ ناجر، ولا يهولنَّكما بعد الشُّقة، وخيال المشقَّة، ولا الفلَواتُ يصمّ صداها، ويقصر الطرف عن مداها ، ولا السراب يترجرج رقراقُه، ويخدع الظامئ المحرور مُراقه.

وسيرا – على اسم الله – في نهار وضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأسرة وضّاح، وتخلّلا الأحياء فستجدان لاسم من تنتجعانه ذكراً ذائعاً في الأفواه، وثناءً شائعاً على الشفاه، وأثراً أزكى نماءً وأبقى بركةً على الأرض من أثر الغمام المنهل، فإذا مسّكما الملال، أو غشّى مطيّكما الكلال فاحدوا بذكراه ينبعث النشاط، و ينتشر الاغتباط، وتغُنيا بها عن حمل الزاد، وملء المزاد، وتأمنا غوْل الغوائل، من أفناء دراج ونائل[1]. سيرا- روحي فداؤكما من رضيعيْ همة، وسليلْي منجبة من هذه الأمّة- حتى تدفعا في مسي خامس، له يوم الترحل خامس، إلى الواجي الذي طرّز جوانبه آذار، وخلع عليه الصانع البديع، من حَلْي الترصيع، وحلل التفويف والتوشيع، ما تاه على الأودية فخلع العذار.

وأتِيا العُدوة الدنيا فثمَّ المنتجع والمرَاد، وثمّ المطلب والمراد، وثمّ محلة الصدق التي لا يصدر عنها الوُرّاد، وثمّ مناخ المطايا على حُلاّل الحق، وجيرة الصدق، وعُشراء الخلود، الذين محا الموت ما بينهم من حدود، اهتفا فيها بسكان المقابر عني:

ما للمقابر لا تُجيب الداعي ❋ أوَ ما استقلَّت بالسميع الواعي

* * *

[1] - أولاد دراج، مجموعة قبائل ترجع أصولها إلى هلال بن عامر جد القبائل العربية التي أغارت على شمال أفريقيا، فخربوا، ولكنهم عربوا؛ ومواطن أولاد دراج إلى الآن هي مابين المسيلة (المحمدية) وطُبْنة من مقاطعة قسنطينة، و أولاد نائل مثلهم ولكنهم أكثر منهم عدداً، و مواطنهم تتصل بمواطن إخوانهم أولاد دراج ولكنها تتسع في مقاطعة الجزائر، ولا تزال المخايل والسمات العربية ظاهرة في هذه القابل.

وخصاّ القبر الذي تضمّن الواعي السميع، والواحدَ الذي بذّ الجميع، فقولا له عني: يا قبر، عزَّ على دفينك الصبر، وتعاصى كسرُ القلوب الحزينة على من فيك أن يُقابَل بالجبر، ورجع الجدال، إلى الاعتدال، بين القائلين بالاختيار والقائلين بالجبر.

يا قبر، ما أقدر الله أن يطوي عَلماً ملأ الدنيا في شبر!

يا قبر، ما عهدنا قبلك رمساً، وارَى شمساً، ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلكاً دائراً، وتحبس كوكباً سائراً.

يا قبر، قد فصل بيننا وبينك خطّ التواء، ولا خطّ استواء، فالقريب منك والبعيد على السواء.

يا قبر، أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنك احتويت على أمّة، في رُمّة، وعلى عالم في واحد.

يا قبر، أيدري من خطّك، وقارب شطّك، أيّ بحر ستضُم حافتاك؟ وأيّ معدن ستزن كفتاك؟ وأيّ ضرغامة غاب ستحيل كفتاك؟ وأيّ شيخ كشيخك وأيّ فتى كفتاك؟ فويح الحافرين ماذا أودعوا فيك حين أودعوا؟ وويحَ المشّيعين من ذا شيّعوا إليك يوم شيّعوا؟ ومن ذا ودّعوا منك إذ ودّعوا؟ إنهم لا يدرون أنهم أودعوا بنَّاء أجيال في حفرة، وودّعوا عامر أعمال بقفرة، وشيّعوا خدن أسفار، وطليعة استنفار، إلى آخر سفرة.

يا قبر، لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب، تهمي على تربتك الزكية وتصوب، ولا نستدعي لترويض ثراك المثقلات الدوالح، والغوادي والروائح، ولا نحذو في الدعاء لك حذو الشريف الرضي، فنستعير للنبت جنيناً ترضعه المراضع، من السحب الهوامع، تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء، فنبذتهم

بالعراء، وزاغوا بها عن أدب الإسلام ومنهاجه، وراغوا عن طينته ومزاجه، بل تلك بقية من بقايا الجهل، ما أنت ولا صاحبك لها بأهل.

* * *

قولا لصاحب القبر عني: يا ساكنَ الضريح، نجوى نضو طليح، صادرة عن جفن قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يتأوبه في كل لحظة خيالك وذكراك، فيحملان إليه على أجنحة الخيال من مسراك، اللهب والريح، وتؤدّي عنهما شؤونه المنسربة، وشجونه الملتهبة، وعليهما شهادة التجريح.

إن من تركت وراك، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك؟ وهيهات، ما عان كمستريح!

يا ساكن الضريح، أأكني؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح، إن بُعدك، أتعب من بعدك. لقد كانوا يلوذون من حياتك الحية بكنف حماية، وستذرون من كفاءتك للمهمات بحصن كفاية، ويستدفعون العظائم منك بعظيم، وأيم الله لقد تلفتت بعدك الأعناق واشرأبت، وماجت الجموع واتلأبت، تبحث عن إمام لصفوف الأمّة يملأ الفراغ ويسد الثلمة، فما عادت إلا بالخيبة، وصفر العيبة.

يا ساكنَ الضريح، مت فمات اللسان القوّال، والعزم الصوّال، والفكر الجوّال، ومات الشخص الذي كان يصطرع حوله النقد، ويتطايُر عليه شرر الحقد؛ ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع به البرد، وتتحلّى به القوافي الشرُد، ولا الذكرُ الذي كانت تطنطن به الأنباء، وتتجاوب به الأصداء، ولا الجلال الذي كانت تعنو له الرقاب، وتنخفض لمجلاه العقاب، ولا الدوي الذي كان يملأ سمعَ الزمان، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان.

مات الرسم، وبقي الاسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم.

وعزاء فيك لأمّة أردت رشادَها، وأصلحت فسادها، ونفقت كسادَها، وقوّمت منآدها، وملكتَ بالاستحقاق قيادَها، وأحسنت تهيئتها للخير وإعدادها، وحملتها على المنهج الواضح، والعلمَ اللائح، حتى أبلغتها سدادَها، وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق، ومثلك من بنى العقائد وشادها، أعليت اسمها بالعلم والتعليم، وصيّرت ذكرها محل تكريم وتعظيم، وأشربتها معاني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضيلة فكنت لها نعم الراحم وكنت بها البر الرحيم.

ولقد حييتَ فما كانت لفضلك جاحدة، ومتّ فما خيَّبتْ من آمالك إلا واحدة[1].

وهنيئاً لك ذخرك عند الله مما قدّمت يداك من باقيات صالحات، وعزاء لك فيمن كنت تستكفيهم، وتضعُ ثقتك الغاليةَ فيهم، من إخوانك العلماء العاملين، الصالحين المصلحين، فهم- كعهدك بهم- رُعاة لعهد الله في دينه، وفي كتابه، وفي سنّة نبيّه، دعاةٌ إلى الحق بين عباده، يلقَوْن في سبيله القذى كحلا، والأذى من العسل أحلى.

وسلام عليك في الأوّلين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في العلماء العاملين، وسلام عليك في الحكماء الربّانيين، وسلام عليك إلى يوم الدين.

آفلو[2]، 22 ربيع الأول 1360هـ/9 أفريل 1941.

---

[1] - هي القيام بثورة جارفة تكتسح الاستعمار الفرنسي، وتنتزع بها حريتها واستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كنا نتناجى بها ونعمل لتصحيح أصولها، وقد حقّقت الأمّة الجزائرية الماجدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه.

[2] - آفلو: قرية نائية في جبل العمور من الجنوب الوهراني، وهذه القرية هي التي اختارتها السلطة العسكرية الفرنسية منفى لكاتب هذه الكلمات في أول الحرب العالمية الثانية فقضى فيها ثلاث سنوات.

خطبة الأستاذ الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
يوم صلاة الجمعة الأولى في مسجد
"كتشاوة" بالجزائر العاصمة [1]

الحمد لله ثم الحمد لله تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، جعل النصر يتنزل من عنده على من يشاء من عباده حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نياتهم، وصفاء سرائرهم، وطهارة ضمائرهم.

سبحانه وتعالى جعل السيف فرقانا بين الحق والباطل، وأنتج من المتضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف، وولد الحرية من العبودية، وجعل الموت طريقا إلى الحياة، وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقا، وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت، فباءوا بالصفقة الرابحة، و(اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا)...

سبحانه تعالى جده، تجلى على بعض عباده بالغضب والسخط فأحال مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس للتثليث، وتجلى برحمته ورضاه على آخرين فأحال فيهم

[1] - الشهاب الجزء الرابع، جوان – جويلية 1938.

كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد، وما ظلم الأولين ولا حابى الآخرين، ولكنها سنته في الكون وآياته في الأفاق يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أن لا اله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده واعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتى استقام دين الحق في نصابه، وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه، وجعل نصرة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصبر، صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه وكل متبع لهداه، داع بدعوته إلى يوم الدين.

ونستنزل من رحمات الله الصّيبّة، وصلواته الزكية الطيبة لشهدائنا الأبرار ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة وحرمات الدين وعزة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن.

واستمد من الله اللطف والإعانة لبقايا الموت وأثار الفناء ممن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم والتخريب لديارهم والتحيُّف لأموالهم.

وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل، ووحدة تبعث القوة، ورحمة تضمد الجراح، وتعاونا يثمر المنفعة، وإخلاصا يهون العسير، وتوفيقا ينير السبيل، وتسديدا يقوم الرأي ويثبت الأقدام، وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام وروحانية الشرق وأمجاد العرب، وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النفوس، بعد أن قطعت دابره من الأرض.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كل داع يدعو إلى الفرقة والخلاف، وكل ساع يسعى إلى التفريق والتمزيق وكل ناعق ينعق بالفتنة والفساد.

ونحيي بالإعمار والثمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض الإسلام التي نسميها الجزائر، والتي فيها نبتنا، وعلى حبها ثبتنا، ومن نباتها غذينا وفي سبيلها أوذينا.

أحييك يا مغنى الكمال بواجب ❋ وأنفق في أوصافك الغر أوقاتي

يا أتباع محمد عليه السلام هذا هو اليوم الأزهر الأنور وهذا هو اليوم الأغر المحجل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال، وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألق في مفرقها، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرز من كتابها.

وهذا المسجد هو حصة الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذمكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين، وهذه بضاعتكم ردت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلابا، وأخذتموها منه غلابا، بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد، وعاد إليه التوحيد فالتقيتم جميعا على قدر.

إن هذه المواكب الحاشدة بكم من رجال ونساء يغمرها الفرح، ويطفح على وجوهها البشر لتجسيم ذلك المعنى الجليل، وتعبير فصيح عنه، وهو أن المسجد عاد إلى الساجدين الركع من أمة محمد، وأن كلمة لا إله إلاّ الله عادت لمستقرها منه كأن معناها دام مستقرا في نفوس المؤمنين، فالإيمان الذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله، هو الذي أعاد المسجد إلى أهله، وهو الذي أتى بالعجائب وخوارق العادات في هذه الثورة.

وأما والله لو أن الاستعمار الغاشم أعاده إليكم عفوا من غير تعب، وفيئة منه إلى الحق من دون نصب، لما كان لهذا اليوم ما تشهدونه من الروعة والجلال.

يا معشر الجزائريين: إذا عدت الأيام ذوات السمات، والغرر والشيات في تاريخ الجزائر فسيكون هذا اليوم أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تمجيدا، فأعجبوا لتصاريف الأقدار، فلقد كنا نمر على هذه الساحة مطرقين، ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض يصهر الجوانح ويسيل العبرات، كأن الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا، وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلا الحوقلة والاسترجاع، ثم نرجع إلى مطالبات قولية هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نبهت الأذهان، وسجلت الاغتصاب، وبذرت بذور الثورة في النفوس حتى تكلمت البنادق.

أيها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريبا، لأن البغي مما ركب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجيبا لأن في الإنسان عرقا نزاعا إلى الحيوانية وشيطانا نزاغا بالظلم، وطبعا من الجبلة الأولى ميالا إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معا، والمؤلم المحزن معا، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشر به عيسى روح الله وكلمته.

يا معشر المؤمنين: إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ووظائفه التي كان يؤديها من إقامة شعائر الصلوات والجمع والتلاوة ودروس العلم النافعة على اختلاف أنواعها، من دينية ودنيوية. فإن المسجد كان يودي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة.

أيها المسلمون: إن الله ذم قوما فقال: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه)، ومدح قوما فقال: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين).

يا معشر الجزائريين: إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك". فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما أضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

يا معشر الجزائريين، إن الثورة قد تركت في جسم أمتكم ندوبا لا تندمل إلا بعد عشرات السنين، وتركت عشرات الآلاف من اليتامى والأيامي والمشوهين الذين فقدوا العائل والكافل وآلة العمل، فاشملوهم بالرعاية حتى ينسى اليتيم مرارة اليتم، وتنسى الأيم حرارة الثكل، وينسى المشوه أنه عالة عليكم، وامسحوا على أحزانهم بيد العطف والحنان فإنهم أبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم.

يا إخواني: إنكم خارجون من ثورة التهمت الأخضر واليابس، وإنكم أشتريتم حريتكم بالثمن الغالي، وقدمتم في سبيلها من الضحايا ما لم يقدمه شعب من شعوب الأرض قديما ولا حديثا، وحزتم من إعجاب العالم بكم ما لم يحزه شعب ثائر، فأحذروا أن يركبكم الغرور ويستزلكم الشيطان، فتشوهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثورة أو تقضوا على هذه السمعة العاطرة.

إن حكومتكم الفتية منكم، تلقت تركة مثقلة بالتكاليف والتبعات في وقت ضيق لم يجاوز أسابيع، فأعينوها بقوة، وأنصحوها في ما يجب النصح فيه بالتي هي أحسن، ولا تقطعوا أوقاتكم في السفاسف والصغائر، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح والتجديد، والبناء والتشييد، ولا تجعلوا للشيطان بينكم وبينها منفذا يدخل منه، ولا لحظوظ النفس بينكم مدخلا.

وفقكم الله جميعا، وأجرى الخير على أيديكم جميعا، وجمع أيديكم على خدمة الوطن، وقلوبكم على المحبة لأبناء الوطن، وجعلكم متعاونين على البر والتقوى غير متعاونين على الإثم والعدوان.

قال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي أرتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيءا)

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم وهو الغفور الرحيم.

تلمسان وابن خلدون[1]

رأت تلمسان قرى و مدنا لا تساويها في القيمة العلمية والجلالة التاريخية تهتم و تفتخر برجال من أبنائها لا يساوون في النبوغ والعظمة ذلك الرجل الذي قلب وجه التاريخ، بما وضع له من قواعد، وشرع له من سنن، وابتدع له من جديد، وحمى له من حمى، وهو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، وأرادت تلمسان اليوم- وهي المدينة الكريمة- أن تكرم هذا الرجل الذي أكرمها وكان أحد بناة مجدها، وأن تعرف له بعض حقه، وأن تحيي ذكره بإحياء ذكراه، فأوحت إلى أحد أبنائها- كاتب هذه الأسطر- أن يقوم بهذا الواجب عنها في هذا اليوم الذي تتم به خمسة قرون وسبعون سنة على آخر وفادة وفدها هذا العبقري العظيم على هذه المدينة، تذكارا لصلته بها وصلتها به، ولما أبقاه لها في تاريخه من فخر خالد، وما أبقاه لها على ثراها من أخ بر، هو أبو زكريا يحيي الذي زان سلطنة بني زيان وحفظ أمجادها في كتابه (بغية الرواد) وعسى أن أقوم في هذه العجالة بما يقتضيه وحي هذه الأم من وفاء لها ولابن خلدون، أبين سيرته وأحلل حياته وأكشف عما بينه وبين تلمسان من وشائج القربى، وعما كان لها من تأثير في عقليته العظيمة ومداركه الواسعة بما لقنه علماؤها من فنون وعلوم.

[1] - الشهاب المجلد 14، الجزء 6، أوت 1938.

لم يكن ابن خلدون تلمسانيا بمعنى أنه ولد فيها ونشأ بين ربوعها أو كان له سلف من أهلها، وإنما هو حضرمي الجذم يتصل بأقيل (حضر موت) اتصالا يرجع إليه ما في الرجل من سمة المالك والتسامي للملك، ثم يبتدئ في الإسلام بوائل ابن حجر الصحابي الجليل ابتداء يرجع إليه ما في الرجل من نزعات دينية قوية وخلال روحية مستحكمة، و يرجع إلى هذين ما في الرجل من ملكة عربية عريقة الأصل قوية الأسر ومن بيان قوي التأثير نافذ السحر، ثم تأتي الفتوحات الإسلامية فيكتب لأحد أجداده الخروج من جزيرة العرب الأولى إلى جزيرتهم الثانية (الأندلس)، وإن لله فيمن ساقهم سائق الفتح من إحدى الجزيرتين إلى الأخرى لحكمة ظهرت آثارها فيما شيد للغة العرب وآدابها من بنيان، وفيما تمكن لهما من سلطان.

ويكفينا ابن خلدون نفسه مؤنة البحث عن أجداده في الإسلام فيقول: إن سلفه استوطنوا (أشبيلية)، وكانت لهم بها نباهة وذكر وامتياز بالوظائف العلية، وكل ذلك مما مهد لهذه النفس الكبيرة التبوؤ في العلم الذي ظهرت فيه، ويبين أن أحد أجداده الأدنين انتقل من الأندلس إلى (بونه) ومنها إلى (تونس)، وما كاد يطوي التاريخ منهم اثنين حتى ظهر فيهم من طوى التاريخ في ملاءته وهو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، إذن ليس بين هذا العظيم وبين تلمسان شابكة إلا ما عسى أن يكون من اتصال في الروايات العلمية لأحد أجداده، والروايات العلمية هي الرابطة الكبرى في تلك العصور بين تلمسان والأندلس، فالرجل حضرمي أندلسي تونسي، ولكن قدر له ولتلمسان أن يكون بينهما ما هو أقوى على الدهر من وشائج الأرحام، وهو ما لقنه وهو بتونس من علماء تلمسان الذين كانوا في ركاب السلطان أبي الحسن المريني، فكأن تلمسان أرادت، إذ لم يصلها العظيم، أن تصل، وإذ لم يكن من أبنائها أن تتبناه.

ومن هنا تبتدئ العلائق بين تلمسان وابن خلدون، وهي في أولها علمية وسنعرف ما آخرها، وكان ابن خلدون وهو أعلم الناس بقيمة تلمسان العلمية في عصره، كان يزمع الرحلة إليها لاستكمال معلوماته و إرواء نفسه الظمأى من مناهلها، فتعجلت تلمسان له ذلك بما أوفدت مع السلطان أبي الحسن إلى تونس من علمائها وهم (علماء الدنيا).

يقص ابن خلدون في بيان رائع أثناء خاتمة تاريخه وفي معرض اكتساح السلطان أبي الحسن لافريقية- حكاية ملاقاته بهؤلاء الأعلام من علماء الأندلس وتلمسان، ويذكر ذلك البيان في نخوة كيف كان يتردد عليهم لتغذية نفسه، فيافيهم القارئ المتنعم أن اجتماعه بهم لم يكن من دافع بسيط كما يندفع طالب العلم إلى الأخذ عمن هو أعلم منه، وأن هنالك لطيفة روحانية جذبته إلى هؤلاء الأعلام ومؤثرا نفسانيا وهو سمعة تلمسان في أذنه ومكانتها في قلبه وشهرتها العلمية في ذاكرته، وأننا نراه يذكر اسم الإمام الآبلي التلمساني في مقدمته مرارا في صورة استفتاء في دقائق اجتماعية فلسفية، فيصدر عن رأيه ويشهد له بالتمكن وقوة العارضة، فنفهم السر فيما كان متأثرا به من تلمسان وشهرتها الفنية في ذلك العصر، ثم قدرا لله أن ينغمس في السياسة وخدمة الدول، واستشرفت نفسه إلى تحقيق ما هي مستعدة له من ذلك، ولم يجد في الدولة الحفصية التي نشأ في ظلها بتونس ما يشبع مهمته لأنها فرع دولة هرمت وماتت، ففيها من آثار الهرم والموت ما سيلحقها بأمها.

وكانت الدولة المرينية التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية بالمغرب متوثبة إلى الفتح، مندفعة إلى القوة بالقوة، جاذبة إليها عظماء الرجال وأساطين الفكر، فتوسم ابن خلدون أن بضائعه النادرة الغالية لا تنفق إلا في سوقها، فاتصل بها واتصلت به، وكان طبيعيا أن تلمسان هي جسر مرورها إليها،

فدخلها في طريقه إلى حاضرة بني مرين وتلاقي الحبيبان بعد طول الفراق و إلحاح الأشواق، وانتهت تلك الإرهاصات بالمعجزة...

ثم كانت الأحداث في الدولة المرينية المتقلبة تدفع هذا الرجل الفذ تارة إلى الصدر وتدفعه تارة عن الصدر، وكان النزاع محتدا بين بني مرين وبني زيان على تلمسان، كل يريد أن تكون درة في تاجه، فكانت تلك الأحداث وذلك النزاع مما يثمر اتصال الحبيبين "تلمسان وابن خلدون"، فدخلها مرارا وأحلته المكان الرحب بين صدورها وأمرائها وعلمائها حتى خطبته لأن يكون مدبر دولتها والمصرف للأمر والنهي فيها واللسان الناطق عن ملوكها، فأبى لا استقلالا لقيمتها في نفسه ولكن رأى بنظره الثاقب أنه لا يستقر فيها له قرار، وبين بني مرين وبني زيان ما بينهم من مصاولة عليها ومنازعات فيها، فتخلص بحيلة إن لم تبلغ منه تلمسان ومن علومه وآرائه كل مناها فقد أبلغتها بعضا، وهو إبقاء أخيه الكاتب المؤرخ أبي زكا ريا يحيى ابن خلدون كاتبا بالأعتاب الزيانية، ثم تقلبت به صروف الدهر، فأقام سنوات بمدينة بسكرة واغتبط بها وأفاء عليه أمراؤها الأكرم بنو مزني من نعمهم و إكرامهم ما أنساه حواضر الملك العظيمة وعطايا الملوك الجسمية، وكانت تربطه صلة الصهر بمدينة قسنطينة، فلا شك بأنه كان ينتابها في بعض الأحايين لتلك العلاقة، ينفس فيها بعض هموم نفسه الكبيرة، ولا بأس بوزارة حينا ببجاية وهي مدينة العلم إذاك وبها من فرسان المعقول والمنقول العدد الوفير، وكثير منهم يتصل بمؤرخينا بلحمة الأساتذة والمشائخ، ورحم العلم موصولة بين بجاية والأندلس و تلمسان وقسنطينة، وكانت بجاية إذاك تمت لكل مدينة من هذه المدن بالصلة الوثيقة، فمؤرخنا قد كان يتقلب من مراكش إلى تونس بين عواصم علمية متشابهة الأعلام، متشابكة الأرحام، و إن فرقت فيها بواعث السياسة والتنافس في الملك،

ونشهد في تضاعف كلامه وكلام من أرخ له من معاصريه فمن بعدهم حنينا من المؤرخ العظيم إلى تلمسان وأعلامها الذين هم مشائخه وأقرانه، وإلى معالمها التي هي مرابعه وأوطانه، ورسائل ترد عليه من أخيه ومن ملوك تلمسان بواسطته، فلم تنقطع صلته بتلمسان يوما، ولو ساعده الدهر فيما نرى لسقط به هواه على هذه المدينة المحبوبة سقوط الحائم على الماء، وفي اختياره لقلعة بني سلامة وانقطاعه بها تلك السنوات التي كتب فيها مقدمة التاريخ البديعة دليل على هذا الميل، لأن تلمسان أقرب مدن إفريقيا إلى قلعة بني سلامة.

هذه الجمل موجزة لبيان صلة خاصة من صلات المؤرخ العظيم بمدينة من مدن قطره يغفلها من الكتب عنه من الكتب الشرق، وعذرهم في ذلك الوقت، وعسى أن ترشح القريحة ببعض أسباب هذه العظمة على الصفحات " الشهاب" الأغر.

موالاة المستعمر خروج عن الإسلام[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المستمعون الكرام... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إذا قلنا إن موالاة المستعمر خروج عن الإسلام فهذا حكم مجمل، تفصيله أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسّها في معناها مادة التولّي والألفاظ واردة على لسان الشرع، منوط بها الحكم الذي حكمنا به وهو الخروج عن الإسلام، وهي في الاستعمال الشرعي جارية على استعمالها اللغوي وهو – في جملته – ضدّ العداوة، لأن العرب تقول واليت أو عاديت، وفلان ولي أو عدّو، وبنو فلان أولياء أو أعداء، وعلى هذا المعنى تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي.

وماذا بين الاستعمار والإسلام من جوامع أو فوارق حتى يكون ذلك الحكم الذي قلناه صحيحا أو فاسدا؟

إن الإسلام والاستعمار ضدّان لا يلتقيان في مبدإ ولا في غاية. فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد، والإسلام شرع الرحمة والرفق، وأمر بالعدل والإحسان، والاستعمار قوامه على الشدّة والقسوة والطغيان، والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار، والاستعمار يدعو إلى الحرب والتقتيل والتدمير والاضطراب، والإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها،

[1]- كلمة ألقيت بإذاعة (صوت العرب) بالقاهرة، سنة 1955.

ويقرّ ما فيها من خير ويحترم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلا من أصوله، والاستعمار يكفر بكل ذلك ويعمل على هدمه، خصوصا الإسلام ونبيّه وقرآنه ومعتنقيه.

نستنتج من كل ذلك أن الاستعمار عدّو لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه، ووجب على المسلمين أن يطبّقوا هذا الحكم الإسلامي وهو معاداة الاستعمار لا موالاته.

الاستعمار الغربي - وكل استعمار في الوجود غربي - يزيد على مقاصده الجوهرية وهي الاستئثار والاستعلاء والاستغلال، مقصدا آخر أصيلا وهو محو الإسلام من الكرة الأرضية خوفا من قوته الكامنة، وخشية منه أن يعيد سيرته الأولى كرة أخرى.

وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلى تحقيق هذا المقصد، فاحتضانه للحركات التبشيرية وحمايته لها وسيلة من وسائل حربه للإسلام.

وتشجيعه للضالين المضلين من المسلمين غايته تجريد الإسلام من روحانيته وسلطانه على النفوس، ثم محوه بالتدريج.

ونشره للإلحاد بين المسلمين وسيلة من وسائل محو الإسلام، وحمايته للآفات الاجتماعية التي يحرمها الإسلام ويحاربها كالخمر والبغاء والقمار، ترمي إلى تلك الغاية. ففي الجزائر - مثلا - يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح المواخير لإفساد مجتمعهم، ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم.

ويأتي في آخر قائمة الأسلحة التي يستعملها الاستعمار الغربي لحرب الإسلام اتفاقه بالإجماع على خلق دولة إسرائيل في صميم الوطن العربي، وانتزاع قطعة مقدّسة من وطن الإسلام وإعطائها لليهود الذين يدينون بكذب المسيح وصلبه، وبالطعن في أمه الطاهرة.

فالواجب على المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أن من كان عدوا لهم فأقل درجات الإنصاف أن يكونوا أعداء له، وأن موالاته بأي نوع من أنواع الولاية هي خروج عن أحكام الإسلام، لأن معنى الموالاة له أن تنصره على نفسك وعلى دينك وعلى قومك وعلى وطنك.

والمعاذير التي يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمداراة وطلب المصلحة، يجب أن تدخل في الموازين الإسلامية، والموازين الإسلامية دقيقة تزن كل شيء من ذلك بقدره وبقدر الضرورة الداعية إليه، واظهر ما تكون تلك الضرورات في الأفراد لا في الجماعات ولا في الحكومات.

وموالاة المستعمر أقبح وأشنع ما تكون من الحكومات، وأقبح أنواعها أن يحالف، حيث يجب أن يخالف، وأن يعاهد، حيث يجب أن يجاهد، وأقبح ما فيها من القبح أن يحالف استعمار على حرب استعمار.

وقد كانت الحروب قبل اليوم لمعان بعضها شريف، وقد يكون أحد الجانبين فيها على حق. أما هذه الحروب التي لا تنتهي الواحدة منها إلا وهي حامل مقرب بأخرى أشدّ منها هولا، وأشنع عاقبة، فلم يبق فيها شيء من معاني الشرف ولا من معاني الرحمة ولا من معاني الكرامة الإنسانية، وإنما هي حرب مجنونة يبعثها حب الاستعلاء والتسلّط على الضعفاء، والاستئثار بخيرات

أرضهم، والضعفاء دائما هم الأدوات التي تقع بها الحرب، وتقع عليها الحرب، فهم في السلم محل النزاع، وفي الحرب ميدان الصراع.

لا مثال للبلاهة والبلادة أوضع من محالفة الضعيف للقوي إلا إذا صحّ في الواقع وفي حكم العقل أن يحالف الديك النسر، أو تحالف الشاة الذئب.

كيف نحالف الأقوياء وقد دلّت التجارب أنهم إنما يحالفوننا ليتخذوا من أبنائنا وقودا للحرب، ومن أرضنا ميدانا لها، ومن خيرات أرضنا أزوادا للقائمين بها، ثم تنتهي الحرب ونحن المغلوبون لخاسرون على كل حال، وقد تكررت النذر فهل من مدّكر؟

أيها المسلمون أفرادا وهيئات وحكومات:

لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه.

ولا تتولوه في سلم ولا حرب فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أوطانكم.

ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له.

ولا تأتمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان.

إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدتم في عمره يوما بموالاتكم له.

ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوّه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سجع الكهّان[1] - (أ)

أيها الأعارب، هل فيكم بقايا من حرب أو من محارب؟[2] دبّت بينكم العقارب،

وأنتم أقارب، فتكدَّرت المشارب، وتفوَّضت المضارب[3]. وكهُمت المضارب[4]، وغاب المسدِّد في الرأي والمقارب، ولم تُغنِ النذر والمثلات والتجارب، إن لدُهاة المغارب يداً خفيّة المسارب، قرأوكم سطوراً لا رجالاً، وعرفوكم بطاءً عن الجُلَّى لا عِجالاً، وحفظوكم شعراً بلا رويّ، وفكراً بلا رويَّة فأخذوكم ارتجالاً، وخالوكم على البعد أعمالاً، فوجدوكم على القرب أقوالاً، وحسبوكم عُمَداً في التركيب الأممّي فألفوكم مفاعيلَ وأحوالا، فأعربوكم إعراب الفَضَلات، وعاملوكم معاملة المهملات، وراضوكم على المهانة حتى ذل جانبكم، ووطِّئت مناكبكم. فأصبحوا لا يُبالون برضاكم لأنه لا ينفع، ولا يأبهون لسخطكم لأنه لا يضرّ. إن الغضبة لا تعقبها وثبة، هي غضبة الذليل العاجز، ولو افترَّت كلُّ بارقة منكم عن صاعقة، لما حمد شائموها القطر، إن غضبة العاجز لا تُبكي ولا تُنكي، تشتعل في الحنايا ولا تهدم الحنايا، تحرق صاحبها ولا تُحرق الناس، وتلك هي غضبتكم حين تغضبون.

---

[1] - نشرت في العدد 71 من جريدة " البصائر" 14 مارس سنة 1949.

[2] ـ حرب ومحارب:قبيلتان من العرب.

[3] ـ تفوضت المضارب: المضارب الخيام.

[4] ـ كهمت المضارب: كهمت كلت والمضرب ما يُضرب به من السيف والمضارب جمعه.

إن للغرب فيكم مطايا ذللاً، ولرائده منكم أدلَّة أذلة، هم أصل البلاء والعلّة، قادكم بسلوك من الأمراء والملوك، فقادوكم إلى الهاوية، فانزعوا المقادة من هؤلاء القادة تُفلحوا، ولن تُفلحوا ولن تصلحوا ما دام يلقاكم بوسيط واحد، فتلقونه بسبعة سفراء، ويلقاكم برأي جميع، فتلقونه بسبعة آراء، ويلقاكم بكتيبة ملمومة، فتلقونه بشراذم شتّى ... ويتحداكم نذيرُه بإنجيل واحد، فتعارضونه بيوحنّا ولوقا ومتّى...

لن تفلحوا ولن تصلحوا إلا إذا رجع أمركم إلى الشعب، وأجمع الشعب على رأي واحد، واتفق الرأي على نظام واحد، وتمخض النظام بدستور واحد، وملك واحد، فإن قلتم: إن هذا عسير، فعيشوا عيشة الأسير أو موتوا ميتة الحسير، شبر في الحياة وقبر في الممات.

جاءتكم النذُرُ تترى، والمعجزات شفعاً ووتراً، وقامت عليكم الحجّة من ثلاثين حجة، فتغافلتم أوّلاً، وتخاذلتم أخيراً، وضاعت العروبة بين التغافل والتخاذل.

إن الفارق بين لفظَي العرب والغرب نقطة، وفيها كل السر، وفيها كل الشر.

وقف الغرب بالباب فلم تتحرّكوا، ثم أنشب الظفر والناب فلم تستدركوا، ثم دسّ أنفه في التراب فوجد رائحة الزيت، ثم طلب الوقوف بالأعتاب فوطّأتم له أكناف البيت.

إن الزيت إدام، ازدحمت عليه الأقدام فحرمه الجبان وحازه المقدام، وكان حظكم منه حظ الطبّاخ الصائم: زَهَماً في اليد ورائحة في الأنف، فيا أرض ابلعي زيتَك، وأَحْيِ ميتك، وإلا خرّب (أبرهةُ) الغرب بيت الله وبيتك.

ألا إن الغرب جاهد في أن يلحق بلفظ السبع منكم حرفين فإذا هو (سبعون)، وأن يزيد في عدد السبع من ملوككم فإذا هو سبعون.

أيها العرب: ما أضيّعَ حكمة الأسلاف عندكم، لقد أبقوا من وحي السماء وحكمة الحكماء، ما لا يُبليه التراب، ولا تُنسيه الأحقاب، وما لو عملتم به لسدتم الكون أئمة، وقُدْتُم الكائنات بالأزِمَّة، ولفللتم السيوف بالآراء، ودحضتم الآراء بالسيوف، ولكنكم أضعتم التراث بتشاكس الورّاث، وإذا كان الوارث غير همّام ولا حارث، غارت العين الفوّارة، وقحلت الأرض الغوّارة:

ورثنا المجد عن آباء صدق * أسـأنا في ديارهم الصنيعا**
إذا البيـتُ الرفيـع تعاورتْه * بُناة السوء أوشك أن يضيعا**

أيها العرب: أطعتم الكبراء فأضلّوُكم، وخضتم للأمراء فأذلّوكم، حتى لنتم للعاجم، ودِنتم للأعاجم، وحتى ألقيتم بالمقاود، لمن سمّاهم أجدادُكم رقاب المزاود، فويحكم: أغنيٌّ ويقترض، ومحجوج ويعترض؟ عزّ الداء وغاب الآسي... لم يأسُ جراحَكم: أغنيٌّ ويقترض، ومحجوج ويعترض؟ عزّ الداء وغاب الآسي ...لم يأسُ جراحَكم ألف " دكتور" فهل يأسوها " ديكتاتور"؟...

وضع الأجداد العقال للرجال فنقلته الأحفاد إلى الرأس، وعدلوا به من الأباعر إلى الناس، وما بين النقل والنقل، ضاع العقل... والتصريف للألفاظ كالتصرّف في الأموال فيه القصدُ والسرَف.

كاظم الحي

سجع الكهّان[1]-(ب)

والعتاق الضمر، والعقبان الحمّر[2]، والهامة ودُمَّر[3]، والزامر إذا زمّر، والخادع وما دمِّر، والعامر إذا عمّر، والشمّري إذا شمّر، ومن حبس الجيوش جمَّر، ومن دخل ظفار فحمَّر[4]، إن للضماء مآرب في ماء مارب[5]، إنها تلوب على مطلوب، كوَّنه الحيا فكَّون به الحياة، فلا تجد إلا السراب والخراب والغراب.

يا عاد، أودى درم[6]، فما عاد، ويا سبأ، هل كنت من سيل العرِم على ميعاد؟ أغنى أسلافك عن ماء مأرب، ماءُ يثرب، وبرَّد أحشاءهم ماءُ بردى، واتخذ أبناء قَيْلة في ظلال النخل مقيلاً، واتخذت غسّان منه[7] إلى جنان الشام سبيلا؛ فماذا أغنى أخلافك اليوم، إنهم عُراة، بالسَّراة، وظماء بلا ماء، ورعية لراعٍ غير ترعية[8]، حطّمهم رعاة البر، فأصبحوا خولاً لرعاة البحر، حفَّ مأرب وروافده، فخرب اليمن ومحافذه.

1- نشرت في العدد 74 من جريدة " البصائر"، 04 أفريل سنة 1949

[2] ـ نوع من الطير.

[3] ـ متنزهان بظاهر دمشق.

[4] ـ صار حميرياً، وهو مثل.

[5] ـ مأرب: سد أثري في اليمن، وقصته في القرآن.

[6] ـ مثل، ودرم رجل في عاد غاب ولم يرجع، وأودى هلك.

[7] ـ الضمير إلى غسان لأنه في الأصل اسم ماء نزلوا عليه.

[8] ـ الترعية، بالكسر والتخفيف: الذي يحسن الرعي.

يا أخلاف لم يسبق مخلاف، بنيتم السد وأحكمتم للثغور السد، وأحسنتم لأواخي الأخوّة الشدّ، وجددتم للأبناء ما بناه الجدّ، هلاّ وجهتم العناية إلى هذه الآية:(لقد كان لسبإٍ في مسكنكم آية). إنها – وأبيكم- عبرة العبر، في وصْل المبتدأ بالخبر، أين الجنتان عن يمين وشمال؟ وأين البلدة الطيبة؟ إنها اليوم رمال؛ وأين القرى الظاهرة والعمارة المتكاثرة؟ إنها اليوم قفار؛ وأين تقدير السير بالأميال، لتيسير الاتصال؟ إنها اليوم مجاهل، يضلّ فيها القطا، ويقطع فيها من المطايا المطا[1] . أجدبت الخمط والأثل، فضلاً عن الكرم والنخل.

أعرض أسلافكم عن هدى الله فباعد بين أسفارهم، وجعلهم أحاديث، ومزقهم كل ممزق، وأعرضتم عن سنن الله فباعد بين قلوبكم، وكنتم أهون عليه من أن يُسَيَّر فيكم حديث، أو يسطّر في شأنكم قصص، أولئك أخذوا على قوّة، فالأحاديث عنها تملأ المسامع، وتهزّ المجامع، وأنتم أخذتم على ضعف وانحلال، فالحديث عنكم لا يُثير عزّة، ولا ينير السبيل إلى قدوة.

لو بذل الكُهّان، ما عزَّ وما هان، في أن يأتوا بمثل قوله(فجعلناكم أحاديث) لما حصّلوا، ولو رقوا إلى سماء البلاغة بسلم وكان فيهم العض[2] والملهم والمكلم، لما وصلوا؛ جلّ كلام الله، وقلّ كلام الكاهن.

* * *

يا أسلاف، ورثتم الحكمة وسيّرتكم الأمثال والفِقَر، وعمرتم من التاريخ صحائف بالمحامد، وشغلتم القرون بالحديث عنكم، وشدتم الباقيات للحضارة،

[1] ـ المطا: الظهر.
[2] ـ العض: العالم الخبير والعضان زيد بن الكيس ودغفل أعلما العرب بالنسب.

وزيّنتم الحياة بالقوة والبأس الشديد، وسبقتم العالم إلى موارد العزة في الدنيا، ووقفتم في نصف هذه الكرة تحكمون وتتحكّمون، وتصلون شرقها بغربها وتقسمون، فبدتم وما بادت آثاركم ولا أخباركم.

ويا أخلاف، ماذا صنعتم؟ وبماذا اقتنعتم؟ هذه آثار سلفكم، عرف الغريب مواقعها، وجهلتم مواضعها، فهل النسب مدخول؟ أو الأنتساب غير منخول؟

ويلكم! إن الألوان، على الدلالة أعوان، سوّد بنو العباس لسؤددهم، وبيَّض العلويون لطهارتهم، وخضَّر العبيديون لدعواهم ودعايتهم، وزرّقتم[1] ... لماذا؟...

كالصل الحي

[1] ـ لبستهم الزرقة، وبدو اليمن يعشقون هذا اللون.

مُحتويات الكِتاب

صورة فخامة رئيس الجمهورية..... 03
مقدمة..... 05
الإمام البشير الإبراهيمي..... 09
نبذة عن حياته..... 11
نصوص منتقاة من آثاره..... 15
1 – في شئون الوطن والأمة..... 16
- نداء إلى الشعب الجزائري..... 17
- تحية غائب كالآيب..... 23
- الشاب الجزائري كما تمثله لي الخواطر 1..... 30
- الشاب الجزائري كما تمثله لي الخواطر 2..... 32
- في مجمع اللغة العربية بدمشق..... 35
- في مجمع اللغة العربية بالقاهرة..... 38
- واجب المثقفين نحو الأمة..... 44
- فلسطين عيد الأضحى وفلسطين..... 57

2 – في التربية والتعليم..... 59
– العربية فضلها على العلم والمدنية..... 61
– التعليم والحكومة..... 73
– إلى أبنائي الطلبة المهاجرين..... 78
– إلى أبنائي المعلمين 85
– إلى أبنائي المعلمين الأحرار..... 92
– تعليم البنت..... 98
3 – محمد البشير الإبراهيمي ونهج ابن باديس..... 100
– خطبة تكريم ابن باديس..... 101
– مقامة في رثاء ابن باديس..... 111
– خطبة الجمعة في تدشين جامع كتشاوة..... 120
– تلمسان وابن خلدون..... 126
– موالاة الاستعمار خروج عن الإسلام..... 131
– سجع الكهان 1..... 135
– سجع الكهان 2..... 138
الفهرس..... 141

طبع هذا الكتاب بـ:

دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة ـ الجزائر

الهاتف: 021.68.86.49 الفاكس:021.68.86.48

البريد الإلكتروني : khaldou99_ed@yahoo.fr

في الشباب

أتمثّله مقدامًا على العظائم في غير تهور ، محجامًا عن الصغائر في غير جبن ، مقدّرًا موقع الرجل قبل الخطو ، جاعلا أول الفكر آخر العمل.

في المثقف

فالمثقف هو الرجل المهذب المستنير الفكر ، المجوهر العقل ، المستقل الفكر في الحكم على الأشياء ، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق لا على أسس التخريف ، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه ، الملم بجانب من معارف عصره.

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرانكلين روزفلت - الجزائر
الهاتف: 25/ 021/23.07.24
الفاكس: 21/23.07.07(00213)
ص.ب : 575 الجزائر ، ديدوش مراد
www.csla.dz